تواسي قصيرة

العاشق
ذو الشميز الأحمر

إبراهيم جبران

1435 | 2014
المجموعة الثانية

Sahar Rayani

العاشق ذو الشميز الأحمر | مجموعة قصصية
نُسخة الكترونية، خاصة بالأجهزة الذكية
الإصدار الثاني ٢٠١٤ ـ ١٤٣٥هـ
إبراهيم جبران
جازان | المملكة العربية السعودية
www.jubran4u.com
صورة الغلاف للفنانة التشكيلية سحر رياني

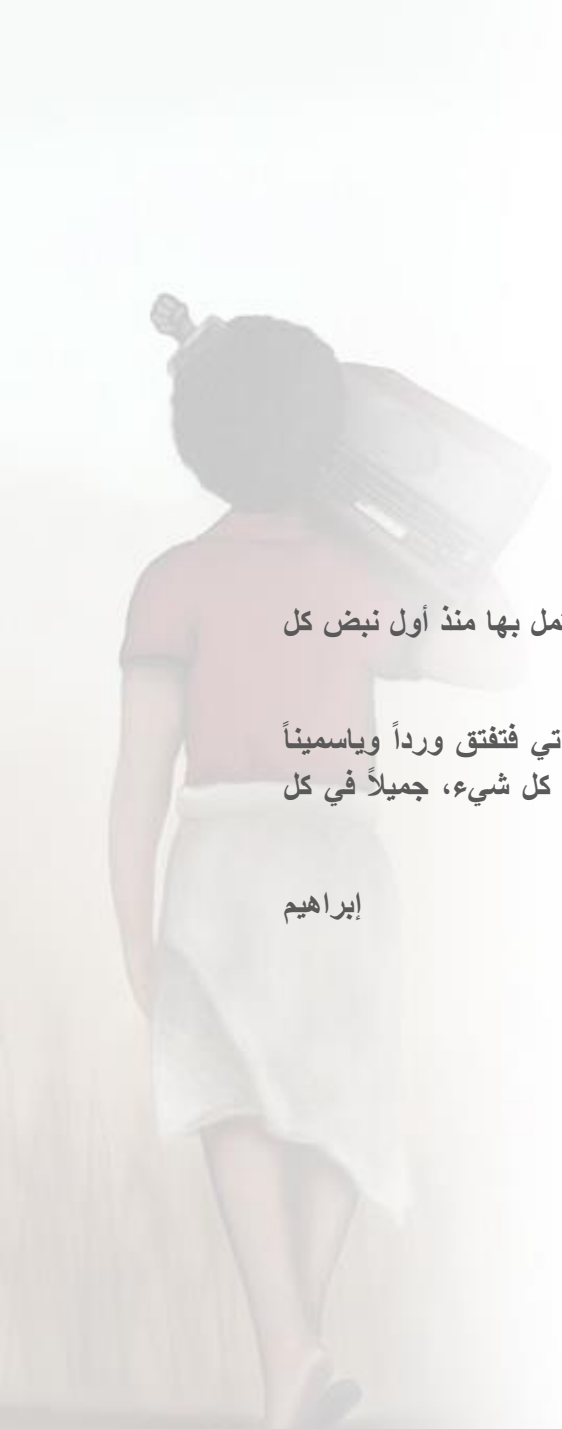

إهْداءٌ ..

إلى شطر (الروح) .. التي اكتمل بها منذ أول نبض كل شيء، حتى حزني.

إلى من زرعت فيَّ اليقين بذاتي فتفتق ورداً وياسميناً وعلمتني كيف أكون أنيقاً في كل شيء، جميلاً في كل شيء، واحتملت فيّ كل شيء.

إبراهيم

الفهرس

١	الإهداء	٣
٢	الفهرس	٤
٣	زربة كانت مطمئنة	٥
٤	جبرة	٧
٥	أجساد بلا ظلال	١٣
٦	الإست أب وعجائز القرية	١٩
٧	ثور كان آمناً	٢٣
٨	قبلة وهم	٢٦
٩	زقلة وشرقي الراحل	٢٧
١٠	بهزة	٢٩
١١	من الذي أضاع الزفة	٣٢
١٢	حلم نافق	٣٤
١٣	ليس هناك ما يستحق!	٣٦
١٤	كاثرين	٣٨
١٥	العاشق ذو الشميز الأحمر	٤٠
١٦	العصا وعازف الناي	٤٥
١٧	تل قريتنا القديم	٤٨
١٨	ذات المصر الأزرق	٥١
١٩	من الذي سرق المغش	٥٥
٢٠	عبده مشلة	٥٧
٢١	الحب في زمن الكورونا	٦٠
٢٢	كبنة الشيخ	٦٣

"زَرْبة" كانت مُطمئنة!

"وشِيلة امطيّب" عجوز تعيشُ وحيدةً في عُشةٍ على ظهر قُلّة في حبائط "العزَّافي" هي وعدد من النعاج دأبت على تربيتها والعناية بها.
عاشت في طُمأنينة ودَعة هي وقطيعها الذي يزداد عددُه يوماً بعد يوم، وريمانُه تنموا يوماً بعد آخر، تـَرِدُ المراعي الخضراء، وتنزل الوادي بلا خوف لتشرب الماء دون كدر.
و مرت الأيامُ ..
والمراعي تفيضُ بالخير، والنعاجُ تدُرُّ اللبن، وتمنحُ اللحم، و " وشيلة " ما بين حالبةٍ ولاحمةٍ.
وكثرت مع ذلك الخير أعمالُ العجوز وخشيت على نعاجها الفرقة والشتات ومداهمة الجعاري والذئاب بانشغالها عنها، فاستقر رأيها على أن تستعين بكلب يسوسها، يوردها الماء، والمرعى، على أن يكون من غير أرض نعاجها خشية أن ينشغل عنها بنفسه ومصالحه فيكون من المفرطين.
شدت الرِّحال نحو القرى البعيدة تطلب كلباً قوياً أميناً يجيد صد المتسللين، وحماية المراعي من المتطفلين، حتى وفِّقت إلى كلبٍ وُصف أنه من خبراء رعي النعاج وحماية المراعي.
و مرت الأيامُ ..
والكلبُ يثبتُ أنه قوي ذو منعة، وشدد المراقبة على نعاج العجوز إلى حد بدأت تشعر فيه بالضيق بعد فسحة كانت بها سعيدة.

ومع الأيامِ ازداد عددُ النعاج، وانشغال العجوز وضعفها، وتسلط الكلب حيث بدأ في مخاتلة سيدته المريضة وأكل نعجة كل أسبوع أو أسبوعين دون أن يترك لها أثراً.

ازداد انزعاج النعاج المسكينة فلا مراع أخذت فيها فسحتها، ولا ماء استطابته، ولا هي أمنت على روحها من ذلك المخاتل المستغل ضعف العجوز.

ومرت الأيام ..

واستطاب الكلبُ الحال، والنعيم الذي يتقلبُ فيه ليل نهار، وتذكر أقرانهُ من كلاب قريته ممن تركهم في عوز وفاقة فعقد العزم على أن يأتي بهم يشاركونه النعيم والحراسة.

ومرت الأيامُ ..

حيثُ ذهب الكلبُ إلى قريته يستحثُ أقرانهُ المجيء، مؤكداً لهم أنهم سيحصلون على الخير الوفير والمنعة، وسيأكلون ويشربون دون كلل أو ملل، فالنعاج وفيرة، وسيدته العجوز طريحة الفراش.

توالت الكلابُ وأخذت كلما أطلت العجوز على نعاجها للاطمئنانٍ عليها وجدتها تحيط بها كحُراس القلاع، مشرئبة رؤوسُها نحو الأفق الممتد ترقبُ المتطفلين، وإن عادت إلى مرقدها عاثت في نعاجها فساداً حتى ضاق بها الحال.

ومرت الأيامُ ..

واتفقت الكلابُ على اقتسام القطيع حراسةً وأكلاً وأخذ كل واحد منها نصيبه متكفلاً بالقضاء على أي نعجة أو كبش يحاول الخروج عن طاعته، فكانوا لا يوردونها المراعي إلا بمزاجهم، ولا يسقونها إلا حسب ما يرون، وكلما حاولت نعجة الإفلات سلطوا عليها جراءهم، حتى ضاق

بها الحال، وسئمت تسلط الكلاب وضعف العجوز، وقررت أن تلقن الكلاب درساً، وتنعتق من غل سطوتها وتحكمها في حياتها.

ومرت الأيامُ ..

واجتمعت النعاجُ في ليلة مطيرة في إحدى الزِّراب المجاورة للعجوز النائمة، حيث خطب في المجتمعين كبشٌ أملحٌ أكحلٌ محمرةٌ سُبلته قائلاً:

نحنُ يا سادة أهل أرض ونحب العجوز المسكينة التي غرَّتها قُطعانُ الكلابِ المتمردة وخاتلتها لتضيق علينا، وتعيث فينا أكلاً ومهانة، وقد اجتمعنا اليوم لنوقف المتسلط عند حده، ونستعيد حُريتنا، ومراعينا، وغُدراننا، وسابق سعادتنا فما أنتم قائلون ؟!

صاح الجميعُ مرحبين بالفكرة، ومُشجعين، ومُصفقين، وتعالت أصواتهم وصياحهم حتى بلغت مسامع الكلاب الغافية تحت صُبول الزِّراب القريبة منهم حيث انتبهت إلى خطر يداهمها، فأسرعت هي وجراؤها، مباغتة المجتمعين من كل مدخل وهي تنبح بصوت عال مبدية أنيابها وعيونها تتطاير شرراً.

صُعق المجتمعون وتسمروا في أماكنهم، وكأنما سقطت السَّماء على رؤوسهم حيث خرَّ نصف النعاج مغشياً عليه، والنصف الآخر أرسل بعره دون وعي إلى الأرض من شدة الخوف، فيما أودع الكبش الأملح ذو السبلة الحمراء بطون الكلاب غير مأسوفٍ عليه.

واستمرت الأيامُ في مرورها، والنِّعاجُ في درِّ لبنها .. والمراعي في الاخضرار، والكلابُ في التكاثرِ والانبساط.

وماتت العجوزُ وهي مطمئنةٌ على نعاجها.

جَبْرة!

كانت تُخاتِلُ أمَّها وتَتَنَاوَلُ "جَبْنتها" الفاتِرةَ لتلوكَ ما تبقى مِنْ "حَثْلَتِها" وَهيَ مازالت في الثَّانيةِ مِنْ عُمرِها.
تارة تَنْهرُها أمُّها وأخْرى تترُكُها لتُمَارِسَ هِوايتَها المُبكِّرة.

نَشأت " جَبْرَة" في بيتٍ مِنْ بيوتِ "الحِبَاطَةِ" مُتوسِّطُ الحَالِ يمتلك والِدُها بقرةً وعَشرَ شياهٍ وجَمَلاً ذاعَ صِيتُ قُوَّتِهِ.

تَسْكنُ "جَبْرَة" مَعَ والديْها في عُشَّةٍ مُتوسِّطةٍ بِكَابَتينِ صُفَّت بِها ثلاثُ قُعُدٍ وتَخْتٍ خَشبيّ وغَزّالي مُمَغْرٍ بالأحْمرِ، عُلِّقت بِجانِبِ إحدى كَابَاتِها خَمسُ سَوافعَ ومِجْوَلتينِ وزَنْبيلينِ مَشْغُولينِ بالخُيُوطِ الحمْراءِ والسَّوداءِ المُتقاطِعَةِ.

كَما تَمتَلكُ عائلتها "صَبْلاً" شُدَّتْ أرْكانُهُ إلى جُذُوعِ الدَّومِ وغُشِي بِالقَصَبِ والمَرْخِ.

وكَكُلِّ بيوتَاتِ "الدِّمْنَةِ" تمتلكُ العائلةُ "مِبْوالاً" شُيِّدَ مِنْ أعوادِ السّمْرِ المُغطَّاةِ بالمَرْخِ و "القِصْلِ" والرِّينِ دُونَ سَقفٍ يقعُ خلفَ مَدَارِسِ البَقرِ والأغنامِ.

وتَتَوسَّطُ "قَبَلَ" دَارِهم "إبْرَايةٌ" صُفَّتْ تَحْتها ثَلاثُ جِرارٍ وبُلْبُلةٍ عَتِيقَةٍ.

"جَبْرَة" هي البنتُ الوحِيدةُ لـ "عِيسَى دُجِيم" والذي يُعَدُّ أشْهرَ "مُشقِّبٍ" للجُلْجُلانِ في "دِمْنَتِهِ" بالإضَافةِ لِكونِهِ جَمَّالاً لا تُشَقُّ لهُ عَجْرَةٌ أو يُطَابِقُ لَهُ "خِيٌّ".

ناهيك عَنْ سُمعةِ العائلةِ الطيبةِ بينَ النَّاسِ كأكرمِ بيتٍ في القَرْيةِ، حيثُ لا تكادُ نارُ "مُركَّبِ" "أمِّ جبْرَة" تَنْطَفِئُ ولا يَبْرُدُ جَوْف "جَبْنَتَها" ولا يُمكنُ لامْرأةٍ في كلِّ "الحِبَاطَة" أنْ تَصْنَعَ قَهْوةً كقهْوةِ "عُمْرانة امشَرْقَيةْ" ما جَعَلَ جَارَتَهُم العَجُوز "ظَامِرِيَّة" تَصِفُها بالدَّواءِ، ورائحتُها عِندَ المَغِيبِ غَدتْ حَديثَ الرُّعاةِ الآيبينَ لِزِرَابِهم، وتعْبقُ بها أزقّةُ القريةِ.

تُحْكى عَنْ بَيْتِ "الدَّجَامَةِ" القِصَصُ الكَثِيرةُ والنَّوادرُ التي تَتَنَاقَلُها الألْسِنةُ عن وَلَعِهمُ بالقهوةِ وعِشقُهمُ المِجنونُ لتناولِها طَوالَ يومِهِمُ وخُرامِهِمُ الشَّهيرُ والذي بَلَغَ صِيتُهُ الآفاقَ حتَّى أنَّ أهالي "الدِمْنَةِ" أصْبَحوا يَدْعُونَ عَلى مَنْ يَكْرَهونَ بـ"صَادِع الدَّجَامَة" وهو صُدَاعٌ لا تُوقِفُ خُيُولُهُ الرَّاكِضةُ في أورِدَةِ الرَّأسِ إلاَّ "جَبْنَةٌ" قهْوةٍ أوْ "جَبْنَتينِ" مُعتَّقتينِ بالبُنِّ العَيْبانِي.

تَحْكي العَجُوزُ "ظَامِرِيَّة" أنَّ أمَّ جَبْرَة ذاتَ مَرَّةٍ أزْهَقَتْ رُوحَ تَيْسٍ "زَغْتاً" أطَاحَ جَبْنَتَها مِنْ على نَارِ "مُركَّبِها" حَيْثُ لمْ تَحْتمِلْ قَهْرَ الموْقفِ.

وتَتَندَّرُ فتياتُ "الدِّمْنةِ" على "جَبْرَة" التي لا تَقِلُّ إدْمَاناً عنْ أمِّها حَيْثُ ما أنْ تفْرغَ "جَبْنَةٌ" حتى "تتْلَقَّمَ أخْرى، وإذا خَرَجَت للرَّعْيِ أو وَرَدَتِ الوادي تَتَسلَّى فِي طرِيقِها بِـ"حَثْلَتِها" الَّتي تَسْتمرُّ فِي "مَشْغِها" إلى أنْ تَتَلاشَى!

نَمَتْ وتَرَعْرَعَتْ "جَبْرَة" واشتدَّ عُودُهَا ونَضَجَ، وأضْحَت عَرُوساً تَتَنَاقلُ العَجَائزُ وصْفَ جَمَالِها وحُسْنَ تَرْبيتِها لأبنائهنَّ، ما جَعَلَها حُلُمَ شَبابِ "الدِّمْنَةِ".

وفي يومٍ مِنْ أيامِ الخَرِيفِ ساقتِ الدُّروبُ النَّصِيبَ وخَطَرَ على القَرْيةِ خَاطِرٌ أتى بِهِ ذِكرُ الفتاةِ التي بلغَ الآفاق حَيثُ وَرَدَ "صَبْلَ" "الدِّجيم" خَاطِبٌ مِنْ إحدى القُرَى تُرافِقهُ جَاهَةٌ مِنْ عِليّةِ القومِ تَتَقدّمُهُم بُقَشُ الهَدايا و"حَمُولٌ" قدْ وُقِّرَ بِمَصَارِبِ "الخَطُورِ" والمِشبَّكِ ومِنْ خلفهِ يُجَرُّ كبْشانِ أمْلحَانِ أرْقَمَانِ من "المَخَاصِي".

"ظَامِريَّة" تُحاولُ إقناعَ أمِّ "جَبْرَة" بهذا العَرِيسِ المَيْسُورِ فهوَ مِنْ أهلِ بيتٍ طيبِ الذِّكرِ وميسوري الحال كَمَا تقول، وعائلتُهُم مشْهُورَةٌ بالحَزْمِ والكَرَمِ فَهي تَعْرِفُهُم مُنذُ أنْ نَجَّعَت قبلَ عامينِ إلى حُقُولِهُم حينما أجْحَرَت "الحَبائِط".

تَشَاوَرَ الوالِدانِ في أمْرِ زَوَاجِ "جَبْرَة" واتفقا على قَبولِ الخاطِبِ وتمَّت مَرَاسِمُ الزَّواجِ الذي دُعيَ لَه أهالي القريةِ والكثير مِنْ القُرى المُجاورة وطَافتْ "عُتَّامَةُ" العُرْسِ كلَّ البُيوتِ واسْتمرَّ اللعبُ أسبوعاً كاملاً دوَّت خِلالهُ النَّبابيتُ وأشْعَل وَمِيضُها لياليهم وفاقَت الذَّبائحُ العشرين رأساً.

وَحَينَ " النُّقُولِ" حُزِمَ متاعُ "جَبْرَة" الذي فاضَ مِنْ عَلى جَانبي "خِيَّ" الجَملِ، ولمْ تدعْ أمُّها شيئاً إلَّا شدَّتهُ في رَحْلِها، ولمْ تنْسَ أنْ تُزَوِّد ابنتها الرَّاحِلة بما يُؤنسُ رِحْلتَها ويُهوِّنُ عليها وِحْشَةَ الطَّرِيقِ وجَبَرُوتَ الخُرَامِ.

انطلقتْ قافِلة العَرِيسِ الظَّافِرِ بـ"جَبْرَة"، وطالت طَرِيقُهم وهوَ مالمْ تحْتَمِلْهُ العَروسُ المُعتلِية ظَهرَ جَمَلِها الذي تَضْرِبُ أخْفَافَهُ أدِيمَ الأرضِ نَحو دِيارِ الزَّوجِ.

اشتدَّ بِها "الخُرَامُ" وأمْسَكَها الخَجَلُ عنْ طَلَبِ إيقافِ السّائرينَ، أو أنْ تَسْتَسرَّ لزَوجِها بِحاجتِها لصَبَّةٍ أو صَبَّتينِ تُوقفُ "أزْيارَ" رأسِها عنْ الطَنين، خُصُوصاً وأنَّ الرَّكبَ قد توقَّفَ لمرَّتينِ.

لا حِيلة لـ"جَبْرَة" فالحياءُ مِنْ ناحيةٍ وحماسُ المُسافرينَ الذين خَشَيت إيقافَ مَسيرِهم مِنْ ناحيةٍ والطَّريقُ المُوحِشةُ كُلُّها حَالَت دون أنْ توقِفَ حَمَاسَةَ خُطاهم لتُسْكِتَ عَويلَ حاجَتِها.

"صُادَعُ الدَّجَامَةِ" يُحكِمُ قَبْضَتَهُ على أوْرِدَةِ رَأسِها ويَشُلُّ تَفكِيرها، وحاجتُها لو لِـ"جُغْمٍ" تتضَاعَفُ، ولا حِيلة !!.

غابتْ عنها الحِكمةُ وحَضَرَ حُمْقُها حينَ لَمَحَتْ مُتَّسعاً على "خِيَّ" جملها يُمكنُ أنْ يكونَ مَوقِداً على ظهر حامِلِها المُنطَلِقِ دُونَ تَكاسُلٍ.

اسْتلَّت مِنْ "مِصْرَابٍ" مُدلَّى بجانِبها شَدَّةَ كِبْرِيتٍ و"امْتَخَسَتْ" واحداً مِنها مُضْرِمَةٍ النَّارَ فيما تَيسَّر لها مِنْ أعْوادٍ دُسَّت في "خِيَّ" الجَمَلِ مُؤمِّلةً نَفسها فِي رَشْفةٍ تُوقِفُ طَنينَ رَأسِها وتُنْهي حَاجتهَا المُتَفاقِمة لِرشْفةٍ أو رَشْفَتينِ.

القَافِلةُ مُنْشغِلةٌ بالطَّريقِ والعَريسُ معَ مُرافقيهِ فِي مُقدّمةِ السَّائرين و"جَبْرَة" مُنشغِلةٌ بنَارِها التي نَجَحَتْ في إشْعالِ فتيلِها.

وَهي تُعِدُّ عُدةَ "جَبْنَتِها" مُحتفلةً بنجَاحِ فِكرَتِها أمْسَكَ لِسَانُ اللَّهبِ بِطَرَفٍ مِنْ "وِطَافِ" الخِيّ وبدأ يلتَهِمُ بَعضاً مِنْ أطْرَافِ ثوبِها في حِينِ غَفلةٍ مِنها.

فَاجأتها النّارُ قاطِعةً عَليها لحْظَةَ النَّشوةِ، ومُفجِّرةً لحْظَةَ فَزَعٍ في صَدرِها جَعلتها تُطلِقُ صِيحةً مُدوّيةً "جَبَّ" منها الجَملُ وهَاجَ غَيرَ عَابِئٍ بالأحْمالِ المُلتَهِبةِ فوقَ ظهرِهِ حتَّى أوقعَ العَروسَ المَفْجُوعة وهي تصْرخُ وتُولْولُ: حِرقنا حِرقنا غِيروا عَليَّه وَلا غِيروا. !!

فَزِعَ الرَّكبُ وانْخَلعَ قَلبُ الزَّوجِ، فعَرُوسُهُ نِصْفَ مُلتَهِبة وقدْ وقَعَتْ من أعلى جَملِها الهائجُ والمُلتَهِبُ هو الآخر.

الرّجالُ في عِتْمةْ اللَّيلِ مِنهُم مِن انشَّغلَ بالعَروسِ التي سَقَت بِنصفِ إفاقةٍ ومنهُم منْ انشَّغلَ بالجَمَلِ الذي التَهَمَت النَّارُ جُزءً غَيرَ يَسيرٍ مِنْ سَنَامِهِ.

الزَّوجُ المفْجوعُ يُحاولُ إفَاقَةَ عَروسِهِ التي بَدأت شِبهَ فاقدةٍ لوعْيها غَيرَ أنَّها تُتَمْتِمُ وتَسْألُ عَنْ "جَبْنَتِها" الَّتي أوقَدَت النَّارَ مِنْ أجْلِها.

انتَصَبَ الزَّوجُ وهوَ ما بَينَ مُشْفِقٍ على عَرُوسِهِ وناقِمٍ عَليها ومَفْجُوعٍ ممَّا حَدَثَ!! .
يُقلّبُ طَرْفَهُ بينَ "جَبْرَة" وجَمَلَهُ المُحْتَرَقِ.

الرِّجالُ ضَجَّ بِضَحِكِهِمُ المَكانُ والجَملُ النِصْفَ مُحْتَرِقٍ، باركٌ على ما تَبقَّى مِنْ مَتَاعِ العَرُوسِ، و "جَبْرَة" تتلوّى ما بَينَ خُزَامٍ شَقَّ رأسَها، وفَجِيعَة أحْرَقتَ جَمَلَ زَوْجِها وأثارتْ سُخْطَهُ، وضَحِكِ المُرافقينَ، وقِصَّةِ "خُزَامٍ" لمْ تَتْرُكَ بَابَ دارٍ إلى الآن إلَّا قَرَعَتْهُ.

أجساد بلاظلال!

تزفه الريحُ على "زُبر" الوادي، مرتدياً "حوكه" المُكثل، وشميزه المُقلم المنتهي بزرار مفقود يفضح سُرته البارزة، عاصباً على رأسه بشماغٍ أحمرٍ بدت بعض أطرافه مُهترئة، وقد حشى جيبه الأيسر ببعض "مِخضارة" و"خطور" وبعض "بنات الكاذي" العابقة، ممسكاً في يده اليمنى بـ"مُطْرقٍ" من الأثل "زامخاً" باليسرى رافعاً رأسه في زهو لم يسبقه إليه أحد.

الوادي تزاحمت "زُهوبه" بالزّروع المتوجة بعذوق "الخضير" وبـ"المُعلفات" والمُحطبات، وببعض الرجال ممن اشتغل عن حضوره بغرَّبة "الحَصَار" و"الزَّين" الشَّاجر، وبعضهم بتحميل ما حزمه من "الأيباد" و "السُّعيد" و"الإفليق" على حاملته.

وبرغم كل الجلبة التي يعتقد أنه يُحدثها كل مرة ينزل فيها وأنها تشغل كل الوادي إلا أن أحداً لم يعره أي اهتمام، بل أن أحداً لم يلتفت إليه سوى حمار لأحد "المعالفة" رمقه بعين واحدة قطع حينها "مَشغه" لبعض "الحَشَر" بناهقٍ لم يُطل فيه كثيراً.

أكمل مسيره حتى اعتلى "مِجراناً" كان قد أعده أحد مُلاك الزُّهوب، ومد نظره في الأفق "كاشراً" عن ثنيتين صفراوتين، وناب أيسر مفقود،

"مُتسدفاً" من ضوء الشمس بيده اليمنى بعد أن نقل "مُطرُقه" لليسرى، وكأنه يبحث عن مفقودٍ غطته الزروع.

وكالعادة لم يجد شيئاً ولم يُعره الوادي بمن فيه أي اهتمام، ليعود بعدها إلى حيث كان.

اعتاد "عبده " كل مساء على هذه الحال من أعوام مضت، متوهماً احتفاء الوادي بمن فيه من بشر وزرع وطير، معتقداً بشكل جازم أيضا أن "شوقة محمدية" الهائمة عشقاً تجوب الحقول بحثاً عنه كل مساء غير أن لا واد احتفى ولا قلب "شوقة" خفق له حباً.

هذا ما يحكيه للسامرين في دكان "حمود صغير" كل ليلة حينما يجتمعون للعب "السَّاري" و "عظم الطرق".

وبرغم أنهم لا يعيرون حكاياته أي اهتمام إلا أنه يبدو منتشياً بشكل كبير حينما يروي قصص بطولاته المُملة والمُكررة التي يختلقها لهم.

ما يعرفه الجميع عن "عبده" أنه فقد والده وهو صغير حينما ابتلعه أحد جروف الوادي وهو يهم باجتيازه إلى الضفة المقابلة.

وأمه التي رحلت هي الأخرى زوجةً لأحد الغرباء العابرين بعد انتهاء عدتها لتتكفل بتربيته جدته المُعدمة التي لم يمهلها القدر كثيراً، وقد تركت تلك الصدمات بالغ الأثر في نفس المسكين، ليعيش عمره محاولاً إقناع أهالي القرية أنه لا يقل أهمية عن البقية وأنه محل اهتمام الجميع ومحط أنظارهم، غير أن أحداً لم يهتم لأمره سوى البعض ممن يجُود عليه بنظرات الشفقة كلما لاح طيفه.

"عبده"، قصةُ فقدٍ، وحكاية من حكايات المهمشين ممن لا تحتفظُ بهم ذاكرة الزمان أو المكان، صورة لوجعٍ يرفضه الكثير، وروحٌ تتوق غير أنها لا تملك أي قيمة سوى آدميتها التي يرفضها زمن المصالح.

العالم الذي يسكنه أكبر مما قد يتخيله الناس من حوله، يدفعه كل يوم ليجول بجسده الناحل حول حقول الوادي، ليقول للمنشغلين عنه: (أنا هنا)، أنا مثلكم أتنفس وأحلم، وأفرح وأتألم!، يعرف يقينا أن لا أحد يعيره أي اهتمام لا لشي إلا لأنه لا يمتلك شيئا، خال من كل شيء حتى الذكريات، لا شيء يُعرِّفُ به إلا الوجع والفقد والحاجة لهذا لا يمَل حينما يُعيد سرد بطولاته المزعومة ويكررها كل مساء على مسامع المنشغلين عنه بلعبة الساري.

ثلاثون عاماً عاشها "عبده " يحمل ذلك الشعور بجانب الكثير من الخيبات والكثير الكثير من الصدمات.

وكعادته كل مساء اعتمر عصابته الحمراء ذات الأطراف المهترئة، مرتدياً شميزه ذو الأزرار المفقودة ولم ينس بالتأكيد "مُطرقه" ونزل يختال وحيداً بنفس يقينه الذي ظل يحمله طوال عمره، وكالعادة لم يكترث أحد له، سوى بعض الحمير الجافلة التي يمرُ بالقرب منها بغتة.

أكمل مشهد الاعتزاز كعادته وحيداً دون أي تصفيق من الحضور حيث انتهى به العرض إلى ذات "المِجران"، ليُلملم خيباته وانكساراته ويعود إلي حيث كان.

أحلامه البسيطة لم يتحقق منها شيئاً، وأمنياته نصيبها التأجيل دائماً، لا شيء حاضر لديه إلا الحزن، لا يعرف من بهجة الحياة إلا ذلك الشعور المُغتصب بأن هناك من يهتم لأمره.

القرية بدت هذه المرة أكثر شحوباً، رغم أن المطر بات يُسامر أزقتها و"قُبلانها"، ويغسل عُششها و"صُبولها"، حتى سالت الطرقات، وأمست "مُخسِعة"، وبات الرجال يمتشقون "مساحهم" وفؤوسهم يتحينون الفرصة للانطلاق صوب الحقول مع أول خيوط الفجر، كي يتقاسمون هبة السماء ويسوقون الماء إلى حقولهم.

وعبده لم يشأ أن يكون أقل شأناً منهم ولم يشأ أن يفوته ذلك الصخب وتلك الفرصة التي قد يصنع خلالها مجداً يخلد به في ذاكرة القرية.

انطلق إلى لا شيء، لا يعرف ما لذي يمكن أن يفعله، لم ينس "مُطرقه" ولا عصابته الحمراء مهترئة الأطراف، تحمله خطى الرغبة في أن يخلق مجداً هذا اليوم.

الوادي بدأ يضج بصخب المُساقين، وهدير السيل يضفي رهبة على المكان، وقد بدأت "الزهوب" تتهاوى تحصيناتها وتتساقط زُبرها، والرجال ما بين الفرح والوجل يتنقلون بين حقولهم.

انتصب "عبده" على أحد "العقوم" مُشرق الوجه بابتسامة تُعري أّسنانه النصف متآكلة مشرعاً صدره للريح بزهو لم يعهد من قبل، هذه المرة شعر أن السيل جاء من أجله هو فقط كي يغسل حزنه، وأن ما يسمعه من صيحات الرجال له بالعودة ماهي إلا من قبيل حسدهم، لأول مرة

يقصدونه بصيحاتهم، ولأول مرة يذكرون اسمه ويطلبون منه شيئاً وإن كان ذلك الشيء ضد رغبته.

انتصب وأخذ يجول بنظره فيما حوله من مساحات قد غمرها السيل، والصيحات له بالعودة تختلط مع هدير السيل العارم.

شعر للمرة الأولى أنه محط اهتمامهم، وأن شعوره القديم تأكد هذا اليوم، برغم انه لم يسمع صوت "شوقة" من بين تلك الأصوات المنادية.

الأرض تهتز تحت أقدامه والسيل الهادر يبتلع الزبر واحدا تلو الآخر.

بدأت الأصوات المنادية تغيب وتبتعد وعبده الوحيد الذي مازال يحتفي بانتصاره، ويملأ رئتيه برائحة الطين التي جعلت شريطاً من الذكريات يمر أمامه، يشاهد فيه أمه الراحلة وجدته التي وسدها التراب، وجوعه الذي أطاح بكبريائه، رفاقه المعرضين عنه، تذكر كل الوجع الذي ظل يحمله فوق صدره وكل الأحلام التي ظل يستجدي تحقيقها طوال عمره.

للمرة الأولى في حياته شعر بأنه محط اهتمام العالم بأسره وأن الأرض تدور حوله وأن السماء أرسلت المطر كي يغسل أحزانه، ويحيل يباس أمنياته اخضراراً.

أشرع ذراعيه للريح وغاب تماما عن كل ما حوله، لم يعد يسمع صيحات الرجال ولا هدير السيل ولا تساقط العقوم الواحد تلو الآخر أمام قوة السيل الهائلة.

أغمض عينيه وأرهف سمعه لصوت جدته القادم من السماء والذي يطلبه الرحيل : عبده تعال يا ابني كل شيء هنا مترجي لك.

لأول مرة يشعر بسعادة حقيقية تحمله، تشق صدره، وتُذيقه لذة لم يعهدها، ونشوة رأي بعدها كل ما حوله وضيعاً لا يستحق العودة، حتى "شوقة" التي ظل عمره باحثاً عنها.

في المساء كان "عبده" حديث السامرين في دكان "حمود صغير" ولأول مرة تتحدث عنه القرية لكن دون حضوره.

رحل "عبده" إلى السماء، إلى الأشياء الجميلة التي تنتظره هناك.

لأول مرة يهتم لأمره إمام المسجد وبعض المصلين ممن شيعوه إلى مقبرة القرية التي عاش فيها فاصلة حزن، ونقطة انتهت بها قصة من قصص الوجع، والبؤس، والشتات.

"الإستأب" وعجائزُ القريةِ

آخر ظهور لـ "عاشة امّسعود" ٤،٥٤ مساء ..
هكذا بدا في أعلى شاشة جوال "شوْقة" الذي أهداه لها "معدّي" ابنها العائد من الشَّام وكان هو الهدية التي تناقلتْ خبرها كلُّ البيوتِ في ذلك اليوم، حيث أصبح منزل "عبده كُريش" مزارَ الفُضوليَّات من نساء القرية المتوافدات لمشاهدة تلك الهديَّة (المـُنجّلة) كما تصفُها الأم الـ(مـُتفيشرة).

"مِخْبتة" أنهت مسرعة كنس زَرْبةِ الهوشِ حيث أتمتها ممسكةً المكنسة بيد والأخرى (مُشعبطةً) بجهازها النصف مسلوخ.
"شوْقة" متصلةٌ الآن حيث بادرتها " مِخْبتة" قائلة: كشفة كشفتك من عجوز .. لي ساعة مترجّية أشاك تاجين. !!

ردت "شوْقة" بضحكةٍ مكتوبةٍ منتهيةٍ بوجهٍ أصفرٍ "كاشِرٍ" قائلةً: اسمحيني يا خيَّة ما صدَّقت وامقحم يرقُد بلي بمِرقِد، عوَّد به هَرَم مهو في واحد.. خِهْ منُّه.

وتبادلت الاثنتان الضحكَ الذي لم يقطعهُ إلا دُخول "عاشة امَّسعود" التي بدأت حديثها كعادتها بالسؤال عن "سلامة امْصُليلي" التي لا تُطيقُ وجودها في مجموعتهم، ولولا أن "شوْقة" هي من أدخلتها المجموعة لما بقيت عضوةً فيها.

"شوْقة" هي العجوزُ الأكثر فهماً في مجموعةِ العجائزِ الأربع وأقدمُهن في امتلاك هذا النوع من الأجهزة، وهي التي اقنعت صديقاتها (مخْبِتة وسلامة امْصُليلي وعاشة امَّسعود) بفكرة لقاءاتهم عبر هذا (الإسْت أبْ) كما تُسميه " مخْبِتة ".

استغرب الجميعُ غياب "سلامة امْصُليلي" هذه المرة حيث استغلته "عاشة امَّسعود" وبدأت تُعلن غضبها من وجود "سلامة" في المجموعة وأنها دائما ما تتأخر في كتابة ردودها التي لا تخلُ من الأخطاء الغبية، وبدأ البقية في إطلاق العنان لمواهبهن في "الحشِّ" والذي عادة ما يشغلُ جل حديثهم في كل لقاء لهن.

وبرغم تذكير "شوقه" للمجموعة بأن "سلامة" صديقتهن ستغضب إذا قرأت ما يكتب عنها إلا أن أحداً منهن لم يقتنع.

بدأن في سرد يومياتهن حيث حكت "مخْبِتة" قصَّة "اللحام البارد" الذي أصلحت به (ودي) مطحنتها المكسور، وعرَّجت على "الفُشوري" الذي اشترته مؤخراً مع دلالة القرية "زرْعة امْشامي" غير أنها عابت عليه (قدْره) الصَّغير.

أما "شوْقة" فلم تزد عن سرد قصتها مع إحدى نِعاجِها التي "عَرِمَتْ" وليدها ولم تُلقمْه ضرْعها وكاد أن يموت لولا أنها "عَاوَشتهُ" على (جِديةٍ) لجارتها "صالِحة امسلامي".

"عاشة امَّسعود" هي أكثرهن إبداعاً في نشر الشائعات وتقسم أن ما تنقلهُ حقيقة سمعتها في "الرَّادي"صباحاً بينما هي تعد (صُفِّيرةً) زوجها قبل خروجه إلى (المعمال).
هذه المرة أقسمت أنها سمعت خبراً عن عجوزٍ تطوفُ القُرى وتخطفُ الفتيات الجميلات لتبيعَهن، ضحكت شوقة وبالغت في إرسالِ الوجهِ الأصفر الضاحك وقالت: هيا انتبهي لا تلقاك بس وأنت (تشدِّخين)، وإذا لقيتنها لا ترى كشْرتك يمكن تخطفك على زِين قفاك، وتُخثرنا منك، ومن كذبك.
طبعت "عاشة امّسعود" الوجه الأحمر الغاضب وهي تقول: أنتم مَحَد يبييكم بشي، معاكم إلا "تِغِجَّار" عليّه ثم صمتت تماماً.

طوال مدة الحديث بين العجائز الثلاث و"سلامة امْصُليلي" لم تكتب حرفاً واحداً مكتفيةً بقراءةِ ما يدور بين الباسطات، غير أنها بادرت بنسخ ما أخبرت به "عاشة امّسعود" عن قصة العجوز الخاطفة وبدأت تنشره في كل المجموعات التي تعرفها، وأضافت أنها سمعت الخبر في "الرّادي" صباحاً وهي تكُجُّ دبيتها.

مضت الأيام والعجائز الأربع يبالِغن في استهلاك أوقاتهن وبدأ أزواجهن يعانون من تلك الآفة التي شغلت نساءهم عن (موافيتهن)، و(مطاحنهن)، وتنظيف بيوتهن، فلا زادٌ في وقتهِ والزِّرابُ فاضت بالكِرْس، و "الرِّيمان" تصيح من الجوع، إذ لم يعدن مهتماتٍ بمُعاوشتِها في وقت حاجتها.

"عبده كُريش" أقسم أنَّ له أسبوعاً يلبسُ (الحَوْك) دون (مَهاشَةٍ) ويبيتُ أكثر لياليهِ (طيَّاناً) معلناً غضبهُ على ابنه الذي أفسد أمَّه العجوز بتلك الهدية التي أزَّمت علاقته بعجوزهِ المُتصابية وأشغلتها عنه، وكذلك هو الحال مع بقية النساء.

تفاقمتِ المشكلُ والعجائزُ الأربعُ يتمادينَ في استهلاكِ أوقاتهنَّ متجاهلاتٍ كل بوادرِ الشِّقاق، وعلاماتِ تذمّرٍ وامتعاضِ أزواجهنَّ.
وفي يوم أفاقت القرية على نبأ طلاق "شوْقة" بعد ليلةٍ من (الخُصْمَةِ) كاد خلالها "كُريش" أن يشُجّ رأسها بصميل، ما أفزع بقية النِّساء وأدركن أن الدَّور سيأتيهن لا محالة إذا لم يتداركن حالهن، واتفقن على العودة لحياتهن التي اعتدنها منشغلات بأزواجهن وبيوتهن ودوابهن.
"شوقه" في بيتِ زوجها دونَ ضررٍ لم تُفارقه، إذ لم يكُن خبر طلاقها سوى إشاعة لـ"عاشة امّسعود" كعادتها، وانتشرت كالنار في الهشيم لكنها الإشاعة الوحيدة التي أصلحت حال من وصلتها من نساء القرية للمرة الأولى.

وعاش بعدها "عبده كُريش" سعيداً بـ(حوكٍ) (ممْهوشٍ)، وبطنٍ متروسٍ.

ورامت النَّعجةُ وليدها والقمّتهُ ضرْعها في حبٍ لم عهدهُ.

ثورٌ..كان آمنا!

يُحكى أن ثوراً اعتاد على الذّهاب إلى أحد المراعي الخضراء وفيرة الكلأ، آمناً مطمئناً يعود مع مغرب كل يوم ببطنٍ ممتلئ وبال هانئ، حتى اكتنز لحمه ومالت (دُربته).

وفي أحد الأيام وأثناء عودته صادف (حمولاً) بلغ به الجوع مبلغاً عظيماً، فبانت أضلاعه، وسقم جسده وجحضت عيناه، وكان أقرب إلى الموت منه إلى الحياة من شدة الجوع.

استوقف الثور متسائلاً عن سر هذه الدُّربة المكتنزة، وهذا الرَّواء الطافح، وذلك البطن المنتفخ شَبَعاً، مُصراً على معرفة المرعى الذي يقصده كل يوم، عله يجد فيه ما يعيد له بعض حياة.

لم يعره الثور في يومه الأول أي اهتمام ومضى والحمول المسكين يصيح ويلاحقه بأسئلته مستعرضاً جسمه النحيل عله يستدر به عطف الثور الشابع حد التخمة فيُشاطره النعيم الذي يتقلب فيه كل يوم.

مرت الأيامُ والثورُ يحاول جاهداً تجاهل ذلك النَّحيل اللجج، حتى وجدت الشفقة من قلبه موقعاً، فاقترب من الحمولِ الكاشر وخاطبه هامساً:

اسمع .. سأقولُ لك سر هذه (الدُربة) المائلة وهذا الكرش المكتنز، وسأصحبك معي للمرعى الذي لا يعرف عنه أحداً ولي فيه شهور عديدة لم يتكدر لي بال، هانئاً مطمئناً آكلاً (ضافِعاً)، في دعة وسكينة، ولا بأس في اصطحابك معي ولكن حذاري أن تخبر أحداً فيكدر عيشنا وتعز علينا اللقمة.

فرحَ الحمولُ بموافقة الثور، ووعده وعداً قاطعاً أن يكون كما يحب، وأن يكتم سر مرعاه.

توالت الأيامُ والثورُ يصطحبُ معه الحمولَ الناحل إلى ذلك المرعى الخصيب، حتى بدأ اللحم يكسو عظم الصديق الجديد، وبدأت الحياة تدب في أوردته وتبدل نحوله تخمة وجفاف جلده رِياً، وضمور عَصْعوصِه إلى اكتناز لم يعهده.

وكلما ازداد شبعه ازدادت حركته ونشاطه، والثور يرقبه بحذر واضطراب من بعيد وهو يلوك حصته من الحشائش والشُجيرات الصغيرة في صمت وحذر.

وفي يومٍ بلغ الشبعُ بالحمول حداً لم يعهده وتفتحت أساريره بشكل لم يستطع معه كبح جماح غريزته، حيث التهم مقدار زُربتين من الحشائش والشُجيرات، ثم وقف وقفة فارسٍ منتصرٍ و (كرّ) مقدارَ (مقمين) على الفائض من وجبته ثم أسلم صوته للريح بنهيق لم يُسمع مثله من قبل بلغ الآفاق، انكشف به مكانهما وانتبهت له آذان قُطعان (الجعاري) الغافية في الجروف، فأقبل من حينه قطيع منها أحدق بالسمينين، ولم

تُفلح معه (عنفلةُ) حمولِ ولا نطح ثور، حيث أجهز القطيع عليهما في لمح البصر وتركهما هياكل لم يجدِ الذُّباب فيها مقيلا.

وغدت قصتهما مثلاً وحديثَ مدارس الأبقارِ ومرابط الحمير، ومجالس العجائز، ومتاكي المقارحة، وبائعي البز.

قبلة وهم!

كان يَعِدُها دائماً إذا ما جمعتهما لقاءات المساء سراً أنه سيزرع لها المدى ورداً وياسمينا وسيجعلها حديث لقاءات صديقاتها، وأنه في غده القريب سيحيك لها من الفرح فستاناً، ويصوغ لها من النجوم عقداً يطوق نحرها، وفي نهاية كل لقاء يقطف قُبلة ثم يختفي، لتبق هي تشيّد قصوراً من الأمنيات سابحة في خيال لا حدَّ له.

وحينما أخذه جناح الترحال شمالاً أدار ظهره لكل تلك الوعود وبدأ قصة قُبلةٍ أخرى.

قال لصديق غربته ذات حديث أنه لم يكن سوى لاهٍ استطاب اللحظة، فأركبها صهوة الخيال، وجعل من الوعود وقود عاطفتها، ليقطف قبلتة في كل لقاء.

وهي استسرت لصديقةٍ أن قلبها تشرّب حبه وباتت لا ترى في العالم سواه، وأن قصة انتظارها بدأت تطول!

مضت الأيام، ولا فستان فرح حِيك، ولا عقداً استدار حول نحرها.

هو..استقرت به سفينة الترحال وهدأت ثورة ملذاته.

وهي.. أصبحت حديث مجالس أصدقائه المنتهية بالضحك.

"زِقلة" و"شرقي" الراحل

قَرْقَرَ جوفُ "الشّاصِ" فجراً وقد قُيد "الأدهم" في حوضه الحديدي، مُيمماً نحو السوق، فغداً هو يوم عيدهم، والأب بحاجة إلى المال لكسوة صغاره.

"زِقلة" و"أحمد صغير" كما تسميه أمه؛ الوحيدان اللذان سيقضيان العيد بلباس حُزن لم يعهدانه. هذا هو العيد الأقسى على قلبيهما، فـ"شرقي" الأدهم كما يسميانه تقاسم معهما كل شيئ تقريباً منذ أن كان (روماً) صغيراً إلى أن أصبح كبشاً عظيماً يتحدث عنه مُلاك الزّاب .

"زِقلة" وأحمد، لم يحتملا هول اللحظة ودسا وجهيهما الصغيرين في حضن أمهما المبتسمة لزوجها المتفائل بكبشه. هو الآخر بادلهما نظرة تكاد أن تنطق وهو يقلب بصره المحزون بين أركان دار الصبا وصديقيه الباكيين، ولا حيلة له إلا بعبعةً تشقُ صمت الفجر، تنطلق ُمدوية في أزقة القرية الجبلية.

تربى "شرقي" منذ نعومة "حوافره" متنقلا بين حضني "زِقلة" وأحمد الصغير يطعمانه ويغسلان شعره إذا اتسخ، ويهتمان به كشقيق ثالث، يتقاسمان معه كل ما يبهج، يسابقانه ويحرصان على سلامته وهو الآخر كان يعي حجم ما يحتفظان به من حب.

كان "شرقي" الفرير هدية خالهم ذات زيارة، ومضت بعدها السنوات وهم يتشاطرون كل شيء حتى أصبح فتياً مترعاً قوةً ولحماً. اللحظة موجعة فالصغيران لا يعرفان كيف لعيدٍ أن يأتي دون صديقهما المقيّد،

كيف ستطيب لهم اللحظات ومن تقاسما معه كل شيء سينتهي به الحال إلى مجهول مُفجع.
"زِقلة" تتذكر كيف كانت تهتم بنظافة فروته وتخضيبها بالحناء الزائد عن حاجة أمها، وأحمد لا ينس كيف كان يهتم بغسله يوميا في بركة الماء خلف كوخهم الحجرية.
لا أحد في المنزل الصغير يعرف حجم العلاقة بين الثلاثة إلا هم.

الشَّاصُ يغيبُ في عتمة الفجر نحو السوقِ، والصغيرين يفتهما الحزن مغالبين حالة البكاء الجاهشة التي الجمتهما برغم وعود الأم لهما بفريرٍ آخر أكثر جمالاً ولطفاً من الراحل.

قُبيل الظهر عاد الوالد خال الوفاض والحسرة تتقاطر من وجهه المتعب. تسأله الأم عن أغراض الصِّغار، يلتفت إليها بحسرة وهو يقول: امفرير انزَّغت في حوض امشاص وماوصلت به إلا قِد عتر !!. ألمٌ آخر فتَّ قلب الصغيرين، وترك حسرةً في نفس الأب، وألماً في روح الأم.

وبات المنزلُ الصغيرُ حزيناً، وجاء العيد بلا كسوة وبفرحٍ بسيطٍ لم تحتفظ به الذاكرة.

بَهْزَة !!

فَرَشَتْ مِهْجانَها، وقرَّبتْ كأسَ مِسَاسِها وآخرًا احتوى جُمَّارَتينِ من الخَميرِ المُفتَّتِ والخُبزِ كَسَحِيلٍ لطحِينِها، كما لم تنسَ أنْ تُحكِم تثبيتَ رِفادَةَ المِطْحَنةِ الخَشَبيَّةِ، ثم بدأتْ أولى جَولاتها مُقشِّرةً حبَّها الحَمْرِي، وزوجُها مُمدَّدٌ على شُبْرِيٍ بالقربِ منها أجرداً إلا من حوكٍ بالكاد يسترُ عَورَتَهُ، يُبادِلها الحديثَ عن رمضانٍ الذي قَرَع أبوابَ ديارهم وكيفَ أعدَّ لهُ العُدَّة.

كان يُحدثها عن زَحمةِ السّوقِ الذي قصَده لبيع أحد كبَاشتهِ وشراءِ ما طلبتهُ للشَّهرِ الفضيلِ، مِنْ تَمرٍ و "فَالودَةٍ" وحُمَرٍ وحُلبةٍ، ولم ينس الأبْزَارَ وشدَّتين "كَبريت أبو طير"، كما لَمْ ينس "ذَبايلَ" الطَّباخَة وأخرى لفانوسِهم وفانوسِ جارتِهم العَجوز "مِهْدِليَّة".

استطردَ في حديثِهِ واصفًا كيفَ أنَّ النَّاسَ تواردتْ من كلِّ صوبٍ حتى من جِبالِ الرّيثِ وبِلغازي وفيفاء رجالاً ونساءً.

وهي مُرْهِفةٌ سمْعها لهُ دونَ أنْ تُبادلِهُ الحَديثَ، مُنشغلةً بِمِطْحنتِها تَهُشُّ الذُّبابَ عن طَحينها تارةً وأخْرى تجْمعُ ما فاضَ عنْ جُنبات المِطْحنةِ من "الرِّهِي" وتَضَعهُ في "حَيْسِيتها" المُجاوِرة لِورِكِها.

أخذتهُ نشوةُ الحديثِ "مُتَفيشِرًا" ، وبدأ يَصِفُ المتسوقينَ، فذاك جبالِيٌ يجرُّ خلفهُ بقرةً منتوجًا، وذاكَ فَرَّ منهُ كبْشهُ، وآخرَ أضاعَ ما اشتراهُ منْ مقاضي الشّهر، حتى وصلَ إلى بائعاتِ الطيبِ والحُسنِ والحنَّاءِ القادِماتِ من قُرى الرّيفِ في أحدِ المسارحةِ والملاحيط ، حيثُ أرْخى جَسَدَهُ على قَادَتِهِ وأخذَ نَفَساً عَميقاً ثُمَّ زَفَرَهُ بهدوءٍ، سَاهِمُ الطرفِ راسِماً ابتِسَامَةً كشفتْ سِتْرَ حَنَكِهِ الأدْلَم، وما أنْ بدأ في وصفِ تلكَ البائعات وكيفَ أنَّهنَّ طافِحَات بالأنوثةِ، بقدودٍ مَمْشوقةٍ وعُيُونٍ دَاعِجَةٍ وخُصُورٍ نَاحِلةٍ.

وهو في غَمْرةِ انتشاءتِهِ لمْ يشْعُر إلاَّ وقدْ استقرَّت الحَيْسْيةُ بِما فِيها مِنْ "رِهِي" على رَأسِهِ، وما أنْ أفاقَ مِنْ صدمَتِهِ حتَّى ثنّت بِـ"وِدِي المِطْحَنةِ" حَيثُ غَرَزَتْهُ فِي كَرشِهِ وصَبَّت ماءَ مِسَاسِها على رَأسهَ، ثم استوتْ في وقْفتِها وصَاحَتْ في وجْهِهِ بِغَضَبٍ لَمْ تُظْهِرهُ من قبل قائِلةً:
وأنتَ يا قَحْم يا فَاجِرْ سوَّقتْ تِقَضّي وإلا تِتعِيشَق ؟!
ثمَّ انصرَفتْ وكأنَّها لمْ تُهجّن لمطْحنَةٍ قطْ.

لمْ تَحتَمِلهُ القَعَادةُ التي غَاصَ بيْنَ حِبالِها وقد مُلئَ فمُهُ "الدَّالعَ" رِهِياً وابتلَّ حَوكهُ بالمِساسِ، ولا شيءَ حَوْلهُ سِوى الصَّمتُ منْ حَوْلِهِ مُطْبِقاً.

مَن الذي أضاعَ الزَّفة !؟

حِمارٌ مُوقرٌ بجكّينِ أزْرقين وفتىً في العقدِ الثَّاني من عمرهِ نحيلُ القامةِ بجهافٍ متوسطٍ متّزراً بحوكٍ بالكاد يسترُ ركبتيهِ وشميزٍ بزرارٍ واحدٍ يتجاوزُ السُّرةَ ببنانتينِ.
يقِفُ الفتى بجانب حِمارهِ الذي بدتْ عليهِ البلادةُ وهو منشغلٌ بلوكِ بعض الجدلِ بهدوءٍ، ينتظرانِ الدورَ لتعبئةِ الأزرقينِ الفارغينِ على ظهره.
الصّبيُ كـ"حَدٍّ" لم يتزحْزحْ من مكانهِ رغم توالي الواردين مستغرقاً في تأملِ فتاةٍ يافعةٍ فاضت معالمُ أنوثتها منشغلةً بسحبِ رِشا الدَّلوِ، مطلقاً زفراته الحرى بين كل جرَّةِ حبلٍ وأخرى.
(كهَّتْ) من صدرهِ تنهيدةٌ كتنور رُفِعَ مِغْماهُ ثم التفتَ ببطءٍ نحو حِمارهِ الذي بدأ مُنزعجاً من طولِ انتظارهِ قائلاً له : قِرّ نُعْرَة !
انتبهت المُنشغلة برِشا الدَّلو والتفتت مبتسمةً للنحيلِ المفتونِ ثم نَكسَ الحياءُ رأسها ودسَّت وجهها في (مِقْلمةٍ) مُطرَّزةٍ تُغطي شعرها اللامعَ المُنساب، وانسَّحبت نحو جرَّتيها الفائضتين بالماءِ وانصرفتْ مودعةً الفاغِر بنصفِ عينٍ، مخلفةً روحاً مُلتهبة تتآكل من الداخل لم ينتزعها من أحلامِ يقضَتها إلا (صَميلاً) هوت به يدُ قَحمٍ هائجٍ وهو يصرخُ : يااااااااا غارة الله!!
غاشي أنت وحمولك هنا و امْسَمْس غَرْبنْ واحنا مِترجّين تِغِير علينا بالماء !!؟.

انتفضَ الحِمارُ فزِعاً وتطايرتْ أحمالهُ الفارغة وانطلقَ (مُعنفلاً) وكأنه يدفعُ الشَّرَ عن نفسه غير مكترثٍ بمصيرِ صاحبهِ الذي باغتهُ الصَّميلُ مُنهياً لحظةَ استرسالهِ في أحلام يقظتهِ، شاجاً مَفْرق رأسهِ ليفقدَ الفتاةَ، والحَمولَ، والزفةَ، و زرارَ شميزه الوحيد، وبعْضاً مِنْ كبريائهِ.

حُلم "نافق!"

لم يخلد إلى سريره إلا وقد أحكم وثاق الأرقم المخصي بعد عزله عن بقية الفران، وتوسد أمنياته في أن يستأثر كبشه غداً باهتمام "المساوقة".

غداً هو أحب أيامه القادمة حيث يتزاحم الباعة والمتسوقون في ساحة البيع والشراء، غداً هو يوم خميسه المنتظر وسوق "الخوبة" هو مقصده الآكد.

ما أن أشرقت الشمس إلا وقلب "هيلوكسه" ذات الغمارة الواحدة يتقد ناراً شطر مقصده.

وقد دس كيسين احتوت بعض "قرامش" وقليل من "خمير" ابتاعها من أول "مزلبي" صادفه عند مدخل القرية.

ترافقه الأمنيات في أن يظفر بسعرٍ يستحق كبشه المربوط خلفه بـ"عقوة" أعدها بيده خصيصاً من "مِيبارٍ" نابت خلف زبير داره.

بالغ العجوزُ الطامح في تدليل كبشه والاعتناء به فهو يَعده كعريسٍ لليلته الموعودة حيث يبحث المتسوقون عادة لأضحيتهم أفضل وأصح "الكباشة" بل ويتفاخرون بارتفاع سعر شرائهم لها.

التهب جوف الخُردة نحو السوق وفارسها يُمنّي نفسه ببيعة لم يشهدها من قبل فكبشه المُدلل قادرٌ على فتنة المتسوقين بسبلتهِ المترعة وأردافهِ

المكتنزة واكتافهِ المترهلة لحماً والمخضبة بالحناء، كيف لا وهو لا يطرح له إلا أطيب "الوجيم" وفُتت الخبز المخلوط مع الحب والدُّخن.

بالغ العجوز في أمنياته وأكمل الطريق مترنماً بـ" يانسيم الصباح سلم على بهي الخد" يدس في فمه ما بين حبة إلى حبتين من الزلابية في كل مرة منشغلاً بها تارة وبأحلام يقظته تارة أخرى عن مراقبة كبشه مشدود الوثاق بالقرب من إطار سيارته "الاستبنة".

الكبش جاحظ العينين مشدود القوائم يحاول المحافظة على اتزانه والبقاء واقفاً في "حوض" المنطلقة، فالمجنون خلف إطار السيارة لا يعير أي اهتمام لما يصادفه على الطريق من مطبات أو حفر أو حجارة، ولا يفرق بين منحناً خطرٍ أو تحويلةٍ إجبارية يسابق الريح قبل ان يفقد السوق حرارته.

الكبشُ شيئا فشيئاً يفقد قواه وتتراخى قوائمه ويهوي ملتفاً على عقوته لتستقبل السماء قوائمه الأربع.

سكن جوف الخردة وتفتحت أسارير ممتطياً حينما وجد "مَلبقاً" بالقرب من مدخل السوق ولم يترجل من مقعده حتى أنهى دهن ساعديه بما التصق في يديه من زيت "الزلابية" متمتماً بالحمد والشكر لله، ثم ترجل وهو يحكم شد حوكه حول خصره النحيل منطلقاً نحو حوض الخردة ليجد "الأرقم المخصي" جاحظَ العينين قد اعترشت روحه السماء "مزغوتاً" بـ"عِقْوته".

ليس هناك ما يستحق!

خرج غاضباً و"انتَوَلَ" "مِيهَارَهُ" المتَّكِئ على "زَرْبِ" العُشة، وهو يتمتم ببعض اللعنات.
لم يخطر بباله أنْ يكون أقرب أصدقائه هو الخائن الأول له.

ظل يمشي بلا هُدى حتى استوقفته جارته "مهدلية" وهي تضحك ملء "شِقْدِها" قائلة له: قلت لك من زمان "المتْوَزِّر بهم عُرْيان" !!

حدجها بنظرة اختلط فيها الحزن بالغضب، دون أن ينطق بكلمة واحدة، وأكمل طريقه الذي وعى ممراته هذه المرة حيث قصد دُكان "اموشيلي".

ابتاع منه حبلاً روسيّاً ثم نقده بعض هللاتٍ وانصرفَ نحو الوادي.

علق الحبل بيد مرتجفة وقبل أن يلفه حول عنقه تأمل المدى المُخضر، والحقول المزدحمة بعذوق الحب، وأصول الدِّجر ومشاقِب الجُلجلان، وعلى رؤوس الأثل والعروج حطت بعض أسراب من الهجف تنتظر نصيبها من تلك الحقول، والرعاة تضج بضحكاتهم مسارب الزهوب.

بدى له المشهد فاتناً على غير العادة، وشعر بالهواء يتسرب إلى رئتيه باثاً فيها الحياة من جديد.

هوى بيديه على حزامه محكماً شد حوكه على خصره الناحل، وأخذ يردد وهو مبتسم: أبوهم على أبو أمهم، أبوهم على أبو أمهم.

عاد إلى داره تحمله قدم التفاؤل وبطاقة للحياة استشعرها حماره المربوط في مدخل الدار حيث شق صمت المكان بناهق استلذه لأول مرة، معلناً فرحته بعودة صاحبه، كما ذعرت الفران مبتهجة وصاح الديك مسروراً.

"كاثرين"

قصة من الرّيف الإنجليزي

"جوليانا" تخرجُ من صَبلها للمرةِ الخامسةِ لتبحث عن "كاثرين" التي خرجتْ منذُ الصباح الباكرِ كي تجلب الحطبَ وبعض الورثةِ كما تعتقد.
العجوزُ "جونيثين" هو الآخر قلقٌ فليسَ من عادةِ "كاثرين" أن تُنهّر بهذا الشّكلِ خصوصاً وأن دُبيتها على طبَّتها منذُ الفجر، هذا ما أكَّدتهُ حفيدته "جاسيكا".
لا أحد في القريةِ يعرفُ أين اختفت؛ حتى كلبُ العائلةِ لم يرافقها هذهِ المرة على غير عادتهِ ولم تستقلّ الحمولَ القابع في مدْرسهِ.
جارُهم "جوستاف" وزوجته "ساماندا" خرجا منذُ الصباحِ الباكرِ بحثاً عن صديقتهم المفقودة.
القلقُ يزدادُ ؛ وانتشرَ خبرُ اختفاء "كاثرين" خصوصا وأن كل المُحطِّباتِ عُدنَ دون أن يقابلْنها في الصَّنيفِ كما أفدن بذلك "جوليانا" التي استقبلتهم على أطرافِ القرية.
في الجانبِ الآخرِ انطلقَ الرجالُ في كلّ اتجاهٍ يحملون هِراواتهم وقلقَهم المتصاعد وغالبُ ظنّهم أن مكروهاً قد وقع لكاثرين" .
انتصف النهارُ، ولا شيء إلا القلقُ المتوالد.
"جوليانا" أقسمت إن عادت "كاثرين" سالمةً لتذبحنَّ أحب الدجاجاتِ إليها ابتهاجاً، ولتُعد مغاشَ الحوتِ وحواسي الخمير والغِلف المُملح.

الحمولُ في مدرسهِ وكلبُ العائلةِ مُسْتلقٍ تحت حِنَّاية الدَّار يطلبُ البُرادَ بين جرتين، و"جوليانا" تنتظرُ بجانب الدَّميمِ تأكلها ساعاتُ الانتظار وتَفحُّصُ القادمين، و"جونيثين" ومرافقوه لم يأتوا بعد.

أصوات النِّعاج يرتفعُ وجلبتُها تتصاعدُ فمنذُ الصباحِ لم يُطرحْ لها جلباً واحداً.

الحمولُ هو الآخر يملأ المكانَ نهيقاً وعيناهُ على مزوامِ القصبِ الذي انفرد به العِجلُ "المازق"من عقوتهِ.

انتبهت "جوليانا" لتوسلات الدَّواب واتجهت نحو مزوامهم لتطرحَ للصائحينَ جوعاً.

وما أن دنتْ لتَمخَسَ محزامَ قصبٍ لتطرحه لها حتى فاجأها منظرُ "كاثرين" وهي نصفَ منغرزةٍ بين مَحازِمِ القصبِ ما بين الإفاقة والإغماء، بعينين جاحظتين لا يرفُّ لها جفناً.

صاحت المفجوعةُ "جوليانا" بمن في دارهم من أهالي القرية الغائرين، وتجمعت النساء والصبيةُ حيثُ زَبَعتْها الجاريةُ "مارتي" على كتفيها وأخذت تركضُ بها نحو صبْلها لتفيضَ عليها "جوليانا" نصفَ جرةٍ من الماءِ، شهقت معها شهقة كادت أن تُخْرِج روحُها لتستعيد وعيها وهي تصيح (جُحْ ، جُحْ، جُحْ)!!.

ضحكَ العجوزُ "جونيثين" وقال وهو يهزُ برأسهِ: إذن هو العجلُ "سنوبو" برَّه عليها بنطحةٍ وتَدَها في "امْزوام" !!.

ضحكت "جوليانا" وضحك صديقُ العائلة "جوستاف" وزوجته، ونهق الحمولُ في مدرسهِ مسروراً.

العاشق ذو الشميز الأحمر!

عاد من سفره قبل أشهر بكثير من الخيبات، و (راديو) بسمَّاعة واحدة ونصف أنتل، بعد أن تخلى عن حُلمه في وظيفة تنتشله من حياة الرّعي و"النّصيد" التي ملها، والتي يرى أنها لا تليقُ به، ولا بجسده النحيل، حيث يرى أنها تُتلف حسه الرومنسي.

كل يوم يرتدي "شوهان" شميزه الأحمر وحوكه الذي يحرص على تثبيته بحقاب من القماش القطني المفتول، شُدَّ على بطن ضامرة بها عدد من الكيّات القديمة.

"جِهافه" المُجعد الكثيف ضَمِن لمشطه الحديدي ذي القبضة مخباً جيداً في مؤخرة رأسه، وشاربه الذي اقتات عليه القلق يُضفي عليه شيئاً من البراءة وبعضاً من الحكمة كما يدعي.

يحمل مذياعه على كتفه كل يوم وما أن يهبط الوادي حتى تبدأ انغامه في اعتلاء موجات الهواء التي تبلغه آذان المُعلِفات وجانيات الدِّجر وجامعات الحطب من "عزَبات" القرية، والقرى المجاورة، فتارة يبينُ صوت وتَرِهِ وأخرى يغيب خلف أشجار الأثل والعروج.

وهو "زامخٌ" لا يعير الساخرين من أترابه أي اهتمام، يشق بطن الوادي، تملأه الثقة، ويحمله اليقين أنه محطَّ أنظار المُعجبات، فهذا الوادي لم يشهد (متعيشقاً) بمثل جاذبيته من قبل، فهو الأكثر وسامة بسُمرته

ومهارته في اختيار ملابسه بعناية فائقة وذوق لا يمتلكه أهل القرية على حد زعمه.

هكذا كان يقينه، وهكذا كل يوم يتنقل على غير هدى بين "الرِّداح" و "الزُّهوب"، ليُسمع المنشغلات بأعمالهن ما يُموسِقه مذياعه في محاولة منه لخطف قلب إحداهن.

لا يمكن أن يترك زبيراً إلا ويطأه بحذائه المطاطي المُزيَّن بفص معدني ابتاعه حين "شايم" آخر مرة، ولا عقمٍ من عقومِ الوادي إلا وينيخُ ركابه عليه لبرهة محاولاً لفت انتباه فتيات الوادي المتهامسات بسُخرية كلما مر بالقرب منهن، مبتسمات تارة ومقهقهات تارة أخرى، وهو "زامخٌ" كعادته مستعرضاً بشميزه الأحمر الذي يحرص على ترك أول زرارين منه مفتوحة لتُظهر بعض شعر صدره المتجعد ذو البشرة النصف شاحبة، وحوكه المتجاوز ركبتيه ببعض بنان، كاشفاً عن ساقين نحيلتين بها بعض الندوب القديمة و"الصنافر".

هكذا اعتاد كل يوم متأملاً أن يظفر باهتمام إحداهن فهو على حد وصف أمه المُحبِط له أنه (متعيشق خُبعة)، لكنه يرى نفسه خلاف ذلك، فالفتيات ينتظرنه كل مساء في الوادي، ليستمعن لما يبثه مذياعه من شجن، وليتأملن تسريحة جهافه، وقميصه الأحمر، وحوكه المشدود إلى حقابه، وشاربه المتآكل.

قضى سنوات على هذه الحال لم يتغير منه شيئا، نفس المذياع، ونفس الجهاف المتجعد، ونفس الشميز والحوك سوى أن عدد الكيات في بطنه ازداد قليلاً، وبعض "صنافر" ساقيه التأمت، ومشطه الحديدي أتى على نصفه الصدأ، وأمام ذلك الثبات كان الوادي بما فيه يتغير كل لحظة،

ففتياته تزوجن وجاءت أخريات، وعددٌ من العقوم التي كان يموسق فوقها آهاته اندثر.

أحلامه تتوالد دون تحقيق، حتى أصبح حديث الوادي، وسُمار الليالي المقمرة على تلال القرية.

لا ينقطع صوت مذياعه عن إرسال ترانيم "سميرة توفيق"، و "صباح"، و"أمل كُعدل"، وشيئاً من شجن "الحارثي" حيث يعتبرها ورداً لا بد أن يشق صمت القرية كل مساء قبل أن يعسفه النوم على قعادته المتهالكة بطراحة عشتهم.

ما أن يموت حلم حتى يولد آخر، وهو على ذات الحال، ما بين زُبر الوادي وجروفه، وأحلام وأمنيات بدأت تمله، وساخرين يزداد عددهم كل يوم، واستياء أمٍ لم تعد تستطيع كتمانه أمام صديقاتها في جلسات المساء المعتقة برائحة القشر.

وفي أحد مساءاته العاشقة وهو يمخر العقوم والزهوب حاملاً مذياعه، مُشرعاً صدره للريح وقد استقر المِشط ذو القبضة الحديدي في مؤخرة شعره، إذ بفتاة قد أعياها حمارُها، وعجزت أن تُحسن شد محازم العلف على ظهره، فتارة يُطابق ذات اليمين وأخرى ذات اليسار.

انتفض الرجلُ كملدوغ، وحملته قدم النخوة وأمل اللقاء بفتاته الموعودة، وانطلق يُسابق صوت مذياعه، مُكفِئاً نصف حوكه الذي دسَّ أطرافه المُكتلة بين حِقابه وخاصرته.

وصل إليها وابتسامة الفرح منشقة عن ثنيتين مفقودتين وناب منخور.

لم يكترث لها كثيراً حيث اللحظة لا تحتمل التدقيق في بعض خساراته القديمة.

استقرت به قدمُ "الفزعة" عند رحلِ الحمار المرتخي، وأخذ يشد بطانته بطريقة تنبئ عن خبرة سابقة، وهو "دالغُ" الفم لم يُزحزح عينيه الصغيرتين عن الفتاة التي وقفت تراقب وبدأت هي الأخرى مرتبكة بسيئ من الخجل.

أنهى شد البِطان واستدار ليُحمِّل حزمة العلف ويضعها على الرحل وسط سخط الحِمار وانزعاجه المتمثل في حركته المستمرة وزفيره الحار.

ثبَّت الحزمة الأولى، وبينما استدار لحمل الثانية انتوله الحمار بـ"زبطةٍ" غاضبة استقر معها حافره تحت سُرته، فكانت آخر عهده بالنور، وآخر عهد "حِقابه" بخصره النحيل.

جحظت عيناهُ واندلع فمه ليسقط بعدها متكوراً دون أي زفرة، والحمار انطلق "معنفلاً" ناثراً ما فوقه من علف، والفتاة في ذهول وحيرة ما بين حمارها الهارب، والمتكور أمامها دون حراك، اختارت بعدها أن تجمع ما تبقى من علفها وأن تقتفي مسرعة أثر الشارد.

"شوهان" على حاله دون حراك، مكوَّرٌ فوق حوكه، ومن حوله المشط الحديدي، وحقابه المقطوع، والمذياع يرسل أغنياته التي حملتها الريح لكل الوادي، يردد معه الرعاة، والمعالفة:

أسمر عبر مثل القمر
عالي سماه
طرفه كحيل
خصره نحيل
زاهي بهاه.

العصا..وعازف الناي

كنا أهل حرث ورعي، نسكن على ضفاف وادي كبير نابض بالحياة، كوريد يربط بين البحر والجبل، كان يتقاسم هذا الوادي الرعاة، والمزارعون، وصيادي الطيور، وأصحاب المساني، والحطابون، وحتى لصوص القصب، وجامعات الطين، وهواة أكل الكين.

كنت صغيراً أركب خلف أخي الكبير على حمار بليدٍ، قصيرٌ شيئاً ما، (متشقلاً) خلفه ممسكاً بكتفيه خشية الوقوع، نشق قطعان الماشية إلى نصف معاد كان الوالد يزرع نصفه ذرةً والنص الأخر جلجلاناً، وبعض الدجر والقطن.

وكنا في كل مرة نذهب فيها إلى (زهبنا) يعترضنا كلبٌ (شبقٌ) لأحد الرعاة الذي كان كل وقته منشغلاً بمزماره، اتضح لي لاحقاً أنه كان (مُتعيشقاً) لإحدى (المُعلفات) في الطرف الآخر من الزهوب، لهذا لم يكن يعير فجيعتنا وخوفنا اليومي من كلبه أي اهتمام.

كل يوم على نفس الحال، ما أن نعبر بالقرب منه حتى ينقض علينا كلبه الشرس يمارس إرهاباً منقطع النظير، يطردنا شر طردة ويسومنا سوء العذاب النفسي، رغم محاولات حمارنا البليد الهرب والحيلولة دون الوصل إلينا، ونحن نجاهد في رفع سيقاننا عن فكه المحشو بالأنياب، إلا أن سيقاننا لم تكن بمأمنٍ عن لعابه المتطاير كالرذاذ.

كل هذه المأساة والعاشق المُزمّر مُنشغل بمزماره وعشيقته المهتمة بعلفها هناك في البعيد.

كان ذلك الكلبُ هماً يومياً ورعباً يسكن نفوسنا بمجرد نزول الوادي، حتى خطرت لي فكرة أن أجرب أخذ عصا ورميها بعيداً حينما يهم الكلب بمطاردتنا، وهي فكرة كنت أشاهدها في أفلام الكرتون، بدت لي الفكرة معقولة وقد تمنحنا فرصة الهرب دون أن يغسل سيقاننا لعاب ذلك الكلب.
أعددت نفسي وجهزنا العصا المناسبة، وأحكمنا الخطة واتفقت مع أخي أن يلهب الحمار ضرباً مع بداية رميي للعصا بعيداً وأثناء انشغال الكلب بمطاردته، حيث تكون الفرصة سانحة للهرب.

وعلى هذا عقدنا العزم، وفي اليوم التالي، كانت نسبة الخوف يسيرة وأملنا في الله ثم فكرة إشغال الكلب بمطاردة العصا ثم الفرار، وانطلقنا متفائلين، ويتكرر نفس المشهد اليومي، الراعي العاشق يعزف على مزماره، و(المُعلفة) في الطرف الآخر من الزهوب، وقطيع النعاج والتيوس منهمكٌ في أكل الحشائش، والكلب يراقب المكان وكأنه ينتظر وصول موكبنا كي يبدأ هو الآخر متعته.

وما أن رآنا حتى انطلق كالبرق، ونحن في كامل الاستعداد، كنت محكماً الإمساك ببطن أخي بيدي اليسرى، والأخرى ممسكة بعصانا الأمل، والحمار بدأ يدس ذيله بين ساقيه استعداداً للحظة.

انتظرت لحظة الصفر، اقترب الكلب وكان هذه المرة عاقداً العزم على ساق أحدنا.
أخي كان ينتظر مني الإشارة وأنا كنت أتحين اللحظة الأنسب، والخوف كان سيد الموقف.
الكلبُ (مدحمرٌ) على (حاملتنا)، والعاشق يُزمر، وما أن اقترب حتى رفعت العود عالياً لألفت إليه نظر المتوحش الهائج، نظرات الكلب

المفزعة وأنيابه البارزة افقدتني السيطرة، وانسلت القوة من ساعدي كما ينسل الهواء من كُرة طُرتّ بسكين، وأيقنت أن الهلاك حل بنا فحاولت أن أدرك ما تبقى في ذراعي من قوة ورميت العصا بسرعة وبنصف طاقتي المتبقية.

الفاجعة الحقيقية هي أن العود سقط بين ساقي الحمار المنطلق، والكلب ما أن رأى الحال حتى ازداد توحشاً وحملته ساقيه كالريح، نحونا، الحمار نهشته الفاجعة فأخذ (يُعنفلُ) ونحن فوق ظهره كمن يتقاذفه موج بحرٍ هائج، نحاول الثبات دون جدوى والكلب تفاقمت نزعته التوحشية.

كل تلك الأحداث، والعاشق مُنشغل بمزماره، حتى وقعنا من على ظهر (المُعنفل) متشابكين نحو قدرنا، وشق الحمار طريقه هرباً، ونحن استسلمنا لحكم الله، وقدره الذي لم يرده إلا اللطف منه حينما انتبه المُزمر العاشق لحالنا البائس، حيث أوقف عزف مقطوعته وانطلق كالريح صوب كلبه المنتصر فتارة يرميه بـ(الكدر)، وتارة يصيح به حتى انتهت به ساقيه بيننا وبين كلبه الذي كان قاب قوسين أو أدنى من ساقي النحيل.

طرد الراعي كلبه بعيداً، والتفت إلينا وانفجر ضاحكاً وهو يقول: (مسوي فيها بيتر هاااا... هيا قوموا الحقوا حماركم) ؟؟!!.
ونحن ما بين أحياء وأموات، عين على حمارنا الشارد، الذي استقر به الحال على أصل دجر، وبين الكلب الذي عاد إلى ظل رينته، وبين العاشق الذي أفسد عليه مشهد الرعب لحظة العشق التي كان يُموسق فيها ألحان نايه، لشطر قلبه (المُعلِّف).

تل قريتنا القديم!

قريتي الصغيرة، تعتلي تلاً ترابياً يطل جهة الشرق على مدى فسيح، ينتهي بعدد من القرى الصغيرة، كنا ونحن صغاراً نعتقد أن تلك القرى هي نهاية العالم، لم نكن نؤمن أن أحداً يشاركنا هذه الأرض، تقاسمنا الفرح، الحزن، الاشتياق، الأحلام.

مع كل صباح نحمل أمنياتنا الصغيرة، ونمضي خلف الفراشات في الحقول التي كانت تمثل لنا المتعة، ولآبائنا وأمهاتنا المتعبين بفرحنا لقمة العيش، والتعب الذي لا ينتهي، والأرق المتجدد كل مساء.

لم تكن تلفت أنتباههم الفراشات، ولا يعني لهم النحل المتنقل بين تيجان الزهور شيئاً، ولا يعيرون العصافير الصغيرة أي اهتمام، بينما كانت لنا كل العالم، ومنتهى المتعة والفرح، وشغلنا الذي لا تقطعه إلا القيلولة التي ينتصف بها نهار متعتنا تحت ظل الأثل، وفيئ العروج.

ذات التل الترابي كنا نعتليه لنطل على المدى الأخضر، المرصع بالباحثين عن الرزق، وتمخر سماءه الحمائم وتختلط أصوات البشر بأصوات قطعان الماشية الآيبة من الحقول، في سيمفونية لم نعد نسمع مثلها اليوم.

لم تتلوث أسماعنا بالنشاز من الأصوات، ولا النشاز من النوايا، والأمنيات، ولا النشاز من الظنون السيئة، ولا الحقد المغلف بالابتسامات الصفراء الشاحبة.

تشاركنا المكان مع الحيوان، والطير، والحشرات، والأشجار وحتى الطين الذي نعود محملين به إلى أسرة نومنا الخشبية مع مغيب شمس كل يوم.
ومع ولادة فجر اليوم التالي نشعر أن الكون يحتفي بنا، والشمس عجلى كيف تمدنا بطاقة المتعة وآباءنا بطاقة العمل والكد، والعطاء، كنا نشعر أن المساء حفلة كونية تنتصف باللعب البريء، وتنتهي بالضحك، والدعوات الصادقة، وبالصلوات.
اليوم، وقفت على ذات التل الترابي بعد ثلاثين عاماً، ليمر شريط ذكرياتي، أطلقت بصري في ذات المدى، والقمر يعترش السماء بحزن بيّن، تساءلت كم مرة أطل هذا العابر على ذات البقية، وكم من البشر سامروه في ذات المكان، وكم مرة سيطل بعدي !؟

كدت أشاهد كل من عرفتهم في قريتي وأنا صغير أطارد الرعاة القادمين من مراعيهم، محاولاً تفريق قطعان الماعز السائرة في خطر مستقيم لأحدث بعض الفوضى البريئة.

كدت أشاهدهم وهم ما بين (مُغرِّب)، و(مُعلف)، و(صارِبة)، و(راعية) وآخرين تتعالى ضحكاتهم منتشين بحكاية من حكايات الحقول.
تذكرتهم بأسمائهم، بتفاصيل وجوههم، وقمصانهم المقلمة، وعصابات رأسهم المكورة، بل كدت أسمع صياحهم الغاضب مني أحياناً.

رحلوا جميعاً وخلفوني مع البقية في ذات المكان وعلى ذات التل الترابي، وذات الأفق الممتد الذي بدى شاحباً هذه المرة.
رحلوا جميعاً، ومنهم من يحزم أمتعة الرحيل، ومنهم ما زال يمده الأمل.

أرهفت سمعي قليلاً، أردت أن أسمع بعضاً من نوتة المرعى القديم، لم تلتقط مسامعي صوتاً لخوار بقرة، ولا صياح ديك، ولا ثغاء ماعز، ولا أم تصيح على ابنها كي يعود، ولا بكاء طفل، ولا صوت مذياع متقطع، ولا همس عاشقين سرى بولههم صمت الأزقة، ولا حتى نهيق حمار بات ليله ممنياً النفس ببعض زاد استأثرت به زربة الضأن المجاورة له.

لم أسمع غير، أزيز مركبات، وهدير معدات، الأرض تهتز من تحتنا، وكأنها تبحث عن رفات الراحلين كي تذيقهم النصب الذي نعيش، والبؤس الذي نقتات عليه كل يوم، والرتابة والملل، والسأم.
تأملت مرة أخرى القمر شعرت أنه يسير بتثاقل، لا يعير من حوله أي اهتمام، فقط يريد أن ينهي رحلة مسائه ليغيب بأسرع وقت ممكن، كي يعود في غده لنفس المصير !.

لم يعد هناك من يعير القمر أي اهتمام، حيث يأتي ثم يمضي دون أن يحتفي به، سوى من بعض قصائد شاهت يرددها الموجعون في مخادعهم، وبعض أمسيات صفراء، لم تلهب فيه الحماسة كي يمد الكون بضيائه الساحر.
أدرت محرك سيارتي، ثم عدت مرة أخرى إلى عالمي المتخشب، أحمل قليل من الفرح، وكثير من الكآبة.

ذات المِصَر الأزرق!

القمر في كامل بهائه تزفه النجوم في ساحة السماء، والسُّكون يُحكم قبضته على المكان، سوى صريرٍ متقطعٍ لجندبٍ عجوز مندسٍ خلف جرةٍ نصف ممتلئة.

وهي تتوسد صدره الذي استدارت في منتصفه (كيّةٌ) قديمة، مداعبة ما تبقى من شعيراته المتجعدة، وتوشوش له عن حلمٍ أصبح ممكناً منذ اليوم بعد أن باع قيراطين من زهبهم، وانتقد قيمتها كاملة من الشيخ "عبده جيلان".

هو الآخر يمرر يده بهدوء على شعرها المُرشش بالطيب، والمُحكم بمصر أزرقٍ ذو خطوطٍ ذهبيةٍ رفيعة، يتأمل احتفال السماء.

ويبادلها الحديث عن البقرة الحُلم التي أصبح بمقدورهما شراءها، وكيف سيختار الأفضل من السوق.

قاطعته بقولها: وشرط تكون منتوج، ترى عهد عليه ما أقطع عنك حقنة ولا سمن حتى أموت.

قهقه قليلاً وهو يهرش كرشته المكورة، وقال: ما عليك، إن شاء الله تطيح ببقر الأشراف.

انتشت الحالمة، وارسلت نظرة فرح التقت بنظرة ثقة ارسلها هو الآخر، وقالت: من الغد سأبرِّز لها جهة السَّمرة الغربية، بالقرب من مربط "الحمول".

قطع حك كرشته وقال بنصف ابتسامة ساخرة: بقرة منتوج تربطنها جنب "حمول"!

أجابته: هو المكان الأنسب والأسلم لها، فهناك ستكون بعيدة عن أعين الحُساد خصوصاً امشقبة "ليلى امسعود".

استوى على مؤخرته بعد أن كان مستلقياً وكأن ما سيقوله هو الفصل في أمر مدرس البقرة، كفكف حوكه إلى ما فوق ركبتيه وقال: حرام ما تنحط إلا في قَبَل البيت، وليسمع بها شامي ويماني.

استوت هي الأخرى في جلستها، وارسلت أدللتها المعضيّة خلف ظهرها، مستنكرة منه ذلك الرأي خصوصاً وأن بقرتهم الأولى ماتت مشقوبة قبل سنوات.

قالت له: أنت من جدك؟
شتحرمنا هذي البقرة اللي لنا سنتين مترجين لها؟!

قال أبداً هذا هو الشُّور، قاطعاً عليها أي فكرة أخرى.

هبّت واقفة وهي تتمتم ببعض كلمات لم تبن له، ما أثار غضبه، حيث بادرها: ما هو تقولين ها؟
ردت جازعةً: أقول أنت فُشُوري، وما همك إلا الناس تقول فلان اشترى واشترى، ونص القرية شقوب، وأقسمت ألا يكون "مـَدْرس" البقرة الجديدة إلا خلف عشتهم وبالقرب من مربط "الحمول".

احمرت عينا الرجل وبدأت أوداجه تمتلئ بالدم الحار، وحدجها بنظرة غاضبة قائلاً: لقديك امرجل هنا ذيك الساعة تحكمي.

جاءت كلماته كالسّوط على ظهر مشاعر الحب التي تُكنها له، وبدت كالمفجوعة، واغرورقت عيناها بالدمع الذي اكتفت به هذه المرة، وانصرفت مهرولة إلى عشتها النصف مضاءة بفانوس بدا في آخر رمق له، لترمي بجسدها المرتعش على قعادة شبه مهترئة، بينما أوقف الجندب العجوز صرير شجنه.

وهو عاد إلى تأمل السماء بعد أن استلقى كعاشق يبحث عن صورة محبوبته بين النجوم المتلألئة في سمائه.

هوت به عينه ولم يفق إلا على جرة محطمة، وعشة لا حياة فيها، أدرك حينها أن صاحبة "المصر الأزرق" قد حملها الحنق إلى بيت أهلها، وما أن (تَضَاحَى) الصباح حتى شد حموله متجهاً نحوهم، ليجد عمه قد تفيأ طل عشته متوسدا سارع شبريه، وهو يحتسي فناجين القشر من جبنة للتو التقطتها عجوزه من قلب مركبها اللاهب جمراً.

القى التحية، وانتول رأس عمه العجوز مقبلاً، وكذلك فعل مع عمته التي ما أن (تواطى) جالساً حتى مدت له بفنجان القهوة.

بدى منكسراً وهو يسأل عن زوجته الغاضبة التي تركت له البيت للفراغ والوحدة.

اكتفت العجوز بالمراقبة بينما بدأ عمه في سؤاله عما حدث بينهما والسبب الذي أتى بابنته "مذاورة" في غلس يومه هذا.

حكى له القصة وما أن انتهى من سردها حتى بادرته العمة العجوز قائلة (كشفة كشفتكم أنتم الاثنين) ثم انفجرت ضاحكة، وثنى العجوز بعد أن ابتلع جغمين من فنجان قهوته بضحكة جب منها الحمول المربوط في مدخل الدار.

ثم سأله ضاحكاً : أنت صادق ؟!.

لم يجبه بشيئ هذه المرة، ثم أردف العجوز مستحضراً كل تجاربه في الحياة : يا بوك محاربه على امغسل وامغدى ماشي!.
كأن ممعاكم خاتمة أنت وحرمتك؟!.

وعى الزوج مقصد عمه، ثم انفجر ضاحكاً، وضحكت العجوز المنشغلة بجبنتها، وسمع الجميع ضحك الزوجة المنصتة بجانب (ساس) العُشة، كما عنفَّل الحمول مسروراً، وذعّرت الفُران مبتهجة مع الجميع.

من الذي سرق المغش؟

لم تنم العجوز "حالية" ليلة الاختفاء المنحوسة، بات فكرها مشغولاً ودلتها لا يسكن لها جوفٌ والقلق يأكل ما تبقى من روحها التي كانت مطمئنة.

لم يحدث منذ احترفت تسقيط "المغاش" وهي صغيرة في دار أمها أن اختفى من جوف تنورها مغشاً قط.

كانت متأكدة تماماً أن "مغشين" تبقيا في التنور ليكون عشاء زوجها المسن واثنين من أولادها العائدين للتو من رحلة عمل شاقة.

"الغُشُّ" يمزق بطنها الناحل، و"المغش" المفقود بات شغلها الشاغل، فلا أحد يمكن أن يتسلل إلى "بُنايتها" ليأخذ مغش لحمها، ولا يمكن لقطط الدار أن ترفع " مِغمى" التنور لتسلب مغشاً يتجاوز وزنها مرتين، ولا يمكن حتى لكلب جارهم المزعج أن يتجرأ ويسرق مغشاً ملتهباً طافحاً باللحم.
ثم أن الغريب في الأمر أن مغشاً واحداً اختفى وتُرك آخر لم يقل عنه إغراءاً.

كيف ومتى ومن سرق "المغش" !!
هذا هو السؤال الذي أقض مضجع حالية، وجفف منابع النوم في مقلتيها.
وأبدل اطمئنانها قلقاً وشكاً وريبة.

وما زاد حالها سوء هو تهكم زوجها العجوز وانفجاره ضاحكاً كلما مرت تحمل قلقها وحيرتها من أمامه.

لم تدع كائناً حياً في محيط دارها إلا اخضعته للسؤال والتحقيق، وأحياناً الاتهام المباشر، فالحدث بالنسبة لها جلل ويقدح في اعتبارها كامرأة يفترض فيها أن تحسن إدارة شؤون منزلها بمن فيه.

القلق يتفاقم والتحقيق طال حتى جارهم صاحب الكلب المزعج، فلربما أنه خاتل من في الدار حين (غرة) واختطف المغش.
لم يترك تفكير حالية ظناً سيئاً أو حسناً إلا واحضره إلى (قُفِّ) رأسها.

مازال المغش الكبير مفقوداً، والصغير قابعاً في جوف التنور ينتظر مصيره، و"حالية" تفرض طوقها الأمني حول بنايتها الطينية، والبيت بمن فيه ما بين ضاحك ومنشغل بأمر المفقود وسره الذي جال القرية بأكملها ولم يستطع أحد أن يفك لغز اختفائه حتى العجوز المنجمة التي تسكن أطراف القرية!!.

عبده مَشْلة

يشتهر "عبده مَشْلة" بطيبته وبساطته وشيء من العناد الممزوج بحمقٍ لطيفٍ، وبجسد نحيل محرّضٍ على النكتة.

وهو من المشهورين بخفة دمه بين (المُفرشين) بسوق القرية الذي يرتاده المتسوقون كل ثلاثاء من القرى المجاورة، يبيعون ويشترون احتياجات أسرهم لبقية الأسبوع.

وفي ذات صباح والسوق مكتضٌ بالباعة والمشترين والصخب يضج بالمكان و"عبده" قد توسط السوق مجتزئاً بعض الطريق الضيق عارضاً حُزم البقل الذي يشتهر ببيعه، منادياً بأعلى صوته " البقل الطيب البقل البقل.. الا البقل البقل ..."

وبينما هو كذلك مر بالقرب منه عابرٌ ضخم الجُثة هادئ الملامح كاد أن يطأ مفرش بقله، لكنه اتقى ذلك بحركة سريعة جنبته الوقوع فيه، وقد

التمح "ابن مشلة" حركة الرجل التي جنبته الإضرار بالمعروض حيث انتصب واقفاً وقد طفح الغضب من وجهه المتعرق النحيل، وأخذ ينادي عليه مزمجراً ثم صاح في وجهه بغضب: (بالله كيف لو أنك دعست على البقل ؟)

رد الرجل بتودد: الحمد لله ستر ولاطف ما وقع شيء.

عاود "ابن مَشلة" سؤاله بحدّة أكبر: لا لا لا بالله لو أنك دعست عليه كيف شيغدي يومك؟

كرر الرجل اعتذاره بشكل أكثر لباقة، وكرر البقال سؤاله المستفز مهدداً ومتوعداً.

أعاد الرجل اعتذاره مرة الثالثة مُطالباً بالاستعادة من الشيطان، غير أن "ابن مشلة" لم يُعر تواضعه واعتذاره أي اهتمام، متمادياً في استفزازه.

حينها انتصب الرجل الضخم وقد انتفخت أوداجه وأحمر وجهه و أمسك بـ(مِصراب) البقل ورفعه عالياً ثم هوى به على رأس صاحبه و أخذ يدوس ما تناثر منه وهو يزمجر : هيّا ذلحين دعسته ورني ما هو شتسوي ؟؟

ثم انصرف وهو يكيل اللعنات على النحيل المُتيبس في مكانه دون أي حركة سوى (فغْرة) ذهول سال منها ريق كلحته.

أفاق " ابن مَشلة" من صدمته (مُتمرطاً) والتفت يميناً ويساراً ثم نظر إلى بقله المهروس بحسرة لم يذقها من قبل، وأخذ يتمتم قائلا: هو صادق هيا ذلحين ما هو امخبر، صدق أن ابن آدم ضعيف أدنى ما خشره !!!

ثم ضحك الجميع وضحك معهم "ابن مَشلة" و عاد الرجل الغاضب ضاحكاً، كما أن شوعية بائعة اللحوح شاركتهم الضحك، وكذلك بخيتية بائعة القوار.

ويقال أن "ابن مَشلة" ترك بعد هذه الحادثة بيع البقل وفتح محلاً للجراك.

الحبُ في زمن الـ"كورونا"

الحُمرة تصبغ الأفق غرباً، وأسراب الطيور الآيبة تحلق منهكة نحو أعشاشها.

في قريتهم النائية شرقاً، صمتٌ يلفُ المكان سوى طرش أقدام "سلمى" وهي تمخره، و"سالم" ممدٌ على "قعادة" المنتفضة مع كل كحة تلفظها رئتيه.

القلق يفت عزيمة العاشقة ويمزق الألم رئة "المُقعر" اللاهث.

"كورون" .. هكذا قالوا له قبل أن ينسل من المستشفى ليلاً ليعود إلى حضن محبوبته القلقة "سلمى"، والتي تطمئنه وتهون عليه بأن ما يعانيه هو (وِرْد) سيُشفى منه قريباً.

مع كل كحة يلفظها حلقه تهدئها سلمى بـ : أنا فداك وا سالم، وبـ : بروحي عنك.

ظلت لأسابيع تداوي المُهتش على "قعادته"، حتى بدأت مفاصله تتزن وتعود أضلاعه إلى مكانها.

وشيئاً فشيئاً استعاد الناحل بعض لحمه، وآبت قوته إلى مساكنها في مفاصل جسده، وأصبح وجهه يضُجُ بالحياة.

وهي تراقب في سعادة عودة العافية إليه، وتحمد الله أن من عليه بها.

عاد "سالم" مرة أخرى إلى الحياة، إلى الحقول يشاطر الناس العمل والضحك والبهجة.

وفي المساء يأوب إلى "سلمى" يشاطرها الحب والمرح والسعادة.

وفي إحدى المساءات الهادئة وقد صفَّت المبتهجة فناجين قهوتها أمام "سالم" الذي استقر متكئا على قعادته ململماً أطراف "حوكه" مرهفا سمعه لسلمى التي أخذت تسترجع أيام ألمها وخوفها على روح غاليها حينما تمكن المرض منه، وكيف كانت تعيش لحظات الوجع معه وكأنه يفتُّ جسدها بدلاً عنه، وهو مُنصت بنصف ابتسامة رضى يُمازحها تارة وأخرى ينخرط في شكرٍ وحمدً عميقين لله أن كتب له عمراً جديداً ليكمل رحلته مع "سلمى".

ارتشف "جُغماً" من فنجانه المصبوب، ثم اعتدل كمن يستعد لقول أمرٍ هامٍ محتضناً كفيه مائلاً برأسه النصف أصلع إلى الأمام، ثم ابتسم وهو يقول ممازحاً: الحمد لله أما ذلحين بي العافية، ومن العافية أشا لي حرمة جديدة!!.

لم تُكل الابتسامة ارتسامها على فمه إلا وقد استقرت "جبنة" القهوة في منتصف رأسه، ليعقبها ولولة لم يفقه منها شيئا وقد احمر المدى في ناظريه، والتوى حول قعادته كمن لوى به "مِعْصرٌ" لتستقبل السماء ساقيه، ويستقر رأسه على الأرض.

و"سلمى" كمارِدٍ انتصبت منتفخة الأوداج فوق رأسه الدَّامي مُحمرة العينين وهي تتمتم بـ : أبوك على أبو من يشفق بك يا فاجر، تشا حُرمة هاااا، والله إذا ما أماتك اموجع لأموتك أنا.

ثم ابتلعها الظلام تاركة خلفها جسداً ملتوياً لا حركة فيه سوى عينين جاحظتين وشفتين تهمسان بـ : توبة .. توبة .. توبة .. توبة

كَبنةُ الشّيخ

القريةُ في هرجٍ ومرْجٍ، والرِّجالُ يتوافدونَ على دارِ شيخِهمُ المُمدّد على قَعادتِهِ يتقلَّبُ كملدُوغٍ.
بطنهُ المنتفخةُ تُفزعُ كل من يدخل للاطمئنانِ عليه.

لم يُفلح كل من وقفَ على حالتهِ من حكماءِ القرية رغم خبراتهم.

زوجتُهُ "ليلي شَاطريَّة" فقدت الأملَ في خُروجِ زوجِها من مِحنَتهِ سالماً، وانتبذَت من عُشَّتها مكاناً قصياً تبكي وتتوسَّلُ الفرجَ لذلك المُقعَّر المنفوخ.

فسَّر بعضٌ ممَّن عاين حالتَه بأنَّهُ ربما ابتلع "فَسَّايَةً" اختبأت في ورقةِ بقلٍ دون أن يدري، والبعضُ قالَ ربما كُبن من حليبٍ مُتخثِّرٍ، وآخرونَ قالوا هو الأجلُ لا محالة.

"شَوْقَة" العجوز تُراهنُ على أنَّ لا شيء يدعو للقلقِ، وتمازحُ الشيخَ وهي تضربُ بيدها المُجعَّدة علي كرشهِ و تقولُ ضاحكةً: هذي كَبْنةَ يا قاسم؛ يمكن دَعَتْ عليك بها كَهْلة، أبرى ذمتك من حقَها تِحْيا.
ثم تنفجر ضاحكةً والشيخُ يُجامِلها بابتسامةٍ يُخالطُها ألمٌ شَديدٌ وحنقٌ.

تداولَ الأهالي نبأ مرضِ الشيخِ وتَعذُّر علاجهِ، وتناقلَ الخبرَ النِّساءُ والصِّبيةُ والرُّعاة.

وانطلق "عبده وِزْرَة" يُخبرُ مَعَالِفَةَ الوادي ورُعَاته مِن أهالي القرية والمُنْجِّعين.

الشيخُ في حالٍ قد تورده القبر ولا حيلة.
الدَّعواتُ تتقاطرُ إلى السَّماءِ في أن يخرجَ منها المسكينُ سالماً.

يومان والرجالُ يتوافدون على صَبْلِ شيخهم ينظرون في أمرِ بطنهِ، ولا جديد، سوى كرْشٍ يزدادُ انتفاخاً.

في ثالثِ الأيامِ وبينما "عبده وِزْرَة" كعادتهِ منطلقٌ بأخبارِ القريةِ على زُبُرِ الزُّهوبِ وعُقُومِها سمعهُ "وبالّ" كان يقفُ على بعضِ نياقٍ ترعى في غابةِ سدرٍ أعلى الوادي المُمتد، استوقفه يسألُ عن هذهِ القريةِ فهو راعٍ عابرٌ لا يعرفُ أحداً.
أجابه "أبن وِزْرَة" أن هذه القرية تُدعى "بُعجانة" وشيخها هو "قاسم ابن يحيى بُعْجَان" واسترسلَ في الحديث عن حالِ الشّيخِ وكيفَ أنَّ أحداً لم يعرفْ سرَّ انتفاخِ بطنهِ وأنَّ الجميعَ مسلمٌ لأمرِ الله.

ابتسم الوبَّالُ وقال للمُنتصبِ أمامهُ في بلاهةٍ: وما هو نَفَخْ بَطْنه؟
أجابهُ الآخرُ بأنَّ أحداً لم يعرفْ حتى الآن.
هَرَشَ الوبَّالُ ناصِيتَهُ وقالَ: ما عليك.. شيخَكُم دواه عنْدي ولا كلافة فيه إنْ شاء الله.

جَحظت عينا "ابن وِزْرَة" وانطلقَ دونَ أنْ ينبسَّ ببنتِ شَفَةٍ على الوبَّالِ المُبتسمِ، وغابَ خلفَ "مِغْبِرٍ" حالَ دون رؤيتهِ.

لم يلتقطْ "ابن وِزْرَة" أنفاسَهُ إلاَّ في مجلسِ الشَّيخِ الآيسِ، وأخَذَ يَصِيحُ: لِقِيتَ دَواكَ يا عَمْ قاسِم .. لِقِيتَ دَواكَ والله لقِيتُه!

حاولَ خادمُ الشيخِ الحيلولةَ دونَ ارتطامِهِ بِكرْشِ عمِّهِ المَنفوخِ وهو يقولُ لهُ: أقول..!! أنشُر كنَّك؛ الشيخ مَحْشُوطْ بالبلا !! وأنت تصايح علىَ راسُه.

أشارَ الشيخُ إلى خَادِمِهِ أنْ اتركهُ، حتى اقتربَ منهُ وبادرهُ بسؤالِهِ عن الدواءِ الذي وجدَهُ.
حدثهُ "ابن وِزْرَة" عن أمرِ الوبَّالِ الذي صَادفَهُ في الوادي، حاولَ الشيخُ أنْ يستوي في جِلسَتِهِ لكنهُ لم يستطعْ فأوعَزَ لخادمِهِ أن يأتِ بهذا الرَّجلِ في الحالِ.

هب نصفُ المتواجدين في مجلسِ الشيخِ في طلب الوبَّالِ الغريبِ؛ حتى أدركُوهُ وقد ملأ رُبعَ حَوْكِهِ "كَيْناً" وأخذ يأكلُ ويرمي ببذرِهِ لبعضِ النعاجِ الرَّاعية بالقربِ منهُ.

وقفَ الرجالُ على أمرِ هذا الزَّائرِ وحَكوا لهُ ما أبلغهم به "ابن وِزْرَة" حيثُ أكَّد ما نقلهُ لهم.

استبشرَ الرجالُ وقالوا إذنْ أنتَ معنا .. الشَّيخُ قاسم بين الحياةِ والموتِ.

صَرَّ ما تبقى من كَيْنٍ في حُذلتِه وامْتَخَسَ "دُبْعاً" قد انتصفَ لبناً من رَاحلتهَ وانطلقَ بعدَ أنْ أكَّد على أحدِ الرُّعاة أنْ ينتبهَ لنياقِهِ ويَحولَ دون أن تُفيّشَ الزُّهوبَ النابتة.

دخلَ الجميعُ مجلسَ الشيخِ والمنتظرون في ترقبٍ ما بينَ مُتفائلٍ وقانطٍ، وما أن وصلَ الغريبُ إلي الشَّيخ المُمدَّدِ حتى بادرهُ بالسلامِ وقال:
يا شيخ قاسم الجماعة قالوا لي بقصتك، ولكْ الله ما هِبتَ لمنتفخ من دَوَايا هذا إلا وينفس الله عليه.
قال له الشيخُ: وما هو دواك سيدي انته.

أخرجَ الرجلُ ملئ كفيَّهِ " كَيْناً " وأمرَ بكأسٍ وصَبَّ فيهِ من "دُبْعِهِ" بعْضاً من لَبن إبلهِ وقالَ للشيخِ: كُلْ واشْربْ ولكِن لا تَدَعْ عليكَ حَوْكاً إلاَّ نَزعْتَه، وليُفسَحْ لكْ دَرْبُ الخلاءِ.

أكلَ الشيخُ ما تيسَّر لهُ من كَينِ الزَّائرِ وشَربَ، وعادِ ماداً ظهرَهُ وقد عَرَشَتْ كَرْشَتُهُ إلى السَّماءِ.

استأذنَ الجَميعُ فالشيخُ أغْمضَ عينيهِ شِبْهَ غَافٍ وتَركُوه فاقِدِي الأملَ في عِلاجِ الغَريب، حيثُ تمْتمَ بعضُهم قائلاً: كين !! كَبَّ كُل أدوية رَبِّي وما لقي إلاَّ امْكِين !!

لم يُكتملْ قُرصُ الشمس اختباءهُ خَلفَ أفقهَ إلاَّ وكَرشُ الشَّيخِ تَرْعُد، وأمعاؤهُ تُقرْقعُ وقد أقبلَ عليهِ الحقُ منِ أسْفلهِ.

صاحَ في خادِمِهِ: المُوت أجَا .. الموت أجا !!
فزِعَ كلُّ من في البيتِ وأقبلوا مُسرِعينَ نحوَ شيخِهِم الذي هَبَّ هو الآخرُ شاقاً صَفهم المُقبلُ عليهِ دُونَ وعيٍ وهو يصيحُ: انْطرِّيت .. انطرِّيت.

لم تُمهلهُ بطنُهُ ليستوي خَلفَ سَاترٍ يَستُرُه بلْ داهمَهُ كالأجلِ الذي لا يستأذن.
انفجرَ الشيخُ من دُبرٍ بما لا قِبلَ لهُ بِهِ وهوَ يَجري عَلَّ ساتراً يحفظُ هَيبتهُ التي أسقطَها كَينُ الوبَّال ولبنُهُ مِن عيونِ المفْجُوعين خلفه.

استقرَّ بِهِ الحالُ خلفَ كومةٍ من الكِرسِ حَجبتهُ عن المُهرولينَ جَسداً ولمْ تَحْجُب عن مسامِعِهم طَقطَقَةُ بطنهِ وأزيزُ أمعائِهِ و"حَقيطُها"، وصيحاتُ الحمدِ والشُّكرِ التي تختلطُ بدعواتِ الرجاءِ أنْ يُيسّرَ اللهُ أمره.

"ابن وِزْرَة" اعتلى كومة الكِرْسِ وأخذَ في التمايُلِ والتصفيقِ بيديه وهو يصيحُ:
الشيخ تبعثر وانتثرْ
الشيخ تبعثرْ وانتثر

هَرَعَت الزوجةُ بماءٍ ولحافٍ يُساعدُها خَادِمَهُ الذي انشرَحت أساريرهُ حيثُ أنهوا غسلَ أسْلابِ الشيخِ التي مُلِّطتْ، وأحكموا لفّهُ في لِحافه وهو يئنُ ويتمتمُ بالحمدِ حتى أودعُوه عُشةُ الزوجةِ ومنعوا عنه الزوارَ ليومينِ قضاها في حَقيطٍ متواصلٍ تمنى ألا ينقطع عنهُ.

وفي ثالثِ الأيامِ بدأ رجالُ القريةِ يتوافدونَ على مجلسِ الشيخِ للسؤالِ عنْ أحوالهِ مباركينَ له الشفاء.

لم يكنْ على بالِ الشيخِ إلا ذلك الوبَّالُ الذي حالَ بأمرِ اللهِ دونَ موتِهِ منتفخاً، إذ أرسلَ خادمَهُ ليُحضره إليه يرافقه عبده وِزْرَة.
انطلقا يبحثانِ عنهُ في غابةِ السدرِ وبينَ رُدُفِ الوادي وأبلغاهُ برغبةِ الشيخِ في حُضُورِه.

أقامَ الشيخُ لهُ مأدبةً دعا لها الأعيانَ والأهالي من القريةِ والقرى المُجاورةِ، وضَربتِ الطبولُ ثلاثَ ليالٍ لم تنقطعْ؛ تتوالى على إيقاعاتِها صُفوفُ الرجالِ والنساءِ رقصاً لم ترقُصْه القريةُ من قبل، حتى "شَوقَة" العَجوز شاركتهم برغم صِلَمِها.

وفي رابعِ الأيامِ وهبِ الشيخُ للوبَّالِ بقرةً وكيسَ حَبٍّ وحمولِ فتيٍّ، ثمَّ أمرَ اثنينِ من خَدَمِهِ بمرافقته حتى مَشارفَ القريةِ مودعين.
غادرَ الوبَّالُ مسروراً تاركاً خلفهُ شيخاً سعيداً وقريةً مبتهجةً بسلامةِ شيخِها الذي ولدَ من جديد.

إبراهيم جبران

مواليد قرية الحسيني عام ١٣٩٥هـ بمنطقة جازان، المملكة العربية السعودية.

- بكالوريوس لغة عربية.
- مشرف تربوي بمكتب التربية والتعليم بمحافظة العيدابي "تقنية معلومات".
- له العديد من الإسهامات الأدبية والثقافية والإعلامية، والعديد من المواقع الإلكترونية التي تخدم منطقة جازان منها على سبيل المثال: (صحيفة جازان الإلكترونية، موقع جازان لأون لاين، الدليل العربي للسير الذاتية، ملتقى أزاهير الأدبي، كشكول المعرفة).
- عضو في عدد من اللجان المحلية الاجتماعية والتعليمية.
- صدرت له أول مجموعة قصصية بعنوان "بائعة الدجر" عام ١٤٣٥هـ.

Jubran4u@gmail.com

www.jubran4u.com

https://twitter.com/ijubran

www.facebook.com/jubran4u

http://www.youtube.com/ij4u

www.flickr.com/photos/jubran4u

https://plus.google.com/102732386505493696278